شرح
المعارف الغيبية في شرح العينية

المتن

للعارف بالله الشيخ عبد الكريم الجيلي

المتوفى سنة ٨٣٢ هـ

والشرح

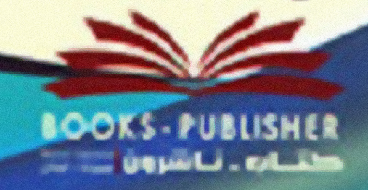
للعارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي

المتوفى سنة ١١٤٣ هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



كتاب - ناشرون

شرح المعارف الغيبية في شرح العينية

المتن

للعارف بالله الشيخ عبد الكريم الجيلي

المتوفى سنة ٨٣٢ هـ

والشرح

للعارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي

المتوفى سنة ١١٤٣ هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



ŠARḤ AL-MAʿĀRIF AL-ĠAYBIYYAH FĪ ŠARḤ AL-ʿAYNIYYAH

شرح المعارف الغيبية في شرح العينية

Author : *Al-Sheikh Abdul-Ghani An-Nabulsi (D. 1143 H.)*

المؤلف : الشيخ عبد الغني النابلسي (ت 1143 هـ)

Editor : *Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali*

المحقق : د. عاصم إبراهيم الكيالي

Classification : *Sufism*

التصنيف : تصوف

Year : *1434 H. - 2013 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

Pages: *160*

عدد الصفحات : ١٦٠

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ x ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

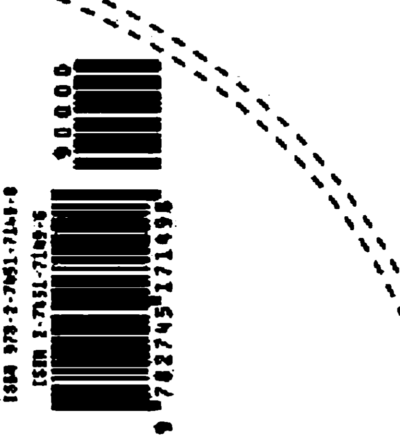
Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : *978-2-7451-7149-8*



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Kalerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 955-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soleh
E-mail: books.publisher@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمٰن الرحيم، المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ليس كمثله شيء من حيث ذاته وهو السميع البصير من حيث تجليات أسمائه وصفاته. «كان ولم يكن شيء غيره» وهو الآن على ما عليه كان. فهو الموجود القديم الذي وجوده من ذاته القائم بنفسه والمقوم لغيره، خلق الممكنات من العدم وما زال يمدهم بالوجود، أخرج أعيان المخلوقات من غياهب العلم الجبروتي الأمري إلى عرصة الوجود الشهادي المُلكي، من الكنز الذاتي المخفي إلى المعرفي الحبية الأسمائية والصفاتية.

وصلى الله على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وحبيبه الإنسان الكامل والخليفة الحقيقي الحامل لأمانة توحيد الذات والأسماء والصفات والأفعال، المبعوث رحمة للعالمين بما جاء لهم به من إسلام يقوّم السلوك وإيمان يهذب النفوس وإحسان يرقي الأرواح في عوالم الملك والملكوت والجبروت ويخرجهم من ظلمات الشرك إلى إيمان القول الوارد في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البَقـَرَة: 136]. ومن إيمان القول إلى إيمان النظر الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يُونس: 101]. ومن إيمان النظر إلى إيمان الشهود والعيان الوارد في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عِمرَان: 18]. أي ينقلهم من إيمان تقليد إلى إيمان علم اليقين الوارد في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التّكاثُر: 5]. ومن إيمان علم اليقين إلى عين اليقين الوارد في قوله

تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 7]. ومن إيمان عين اليقين إلى إيمان حق اليقين الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الواقعة: 95].

وبعد، نقدم للقراء الكرام في إطار إيمان الشهود والعيان، إيمان عين اليقين وحق اليقين؛ إيمان أهل مقام الإحسان كتاباً جليلاً هو «شرح المعارف الغيبية في شرح العينية». المتن: عبارة عن قصيدة عينية للعارف المحقق الشيخ عبد الكريم الجيلي قدّس سرّه المتوفى سنة 805 هجرية. والشرح: عبارة عن تفسير لعلوم الأذواق بما فيها من أحوال ومقامات يتحقق بها السالك إلى الله تعالى. وهذا الكتاب ننشره للمرة الأولى محققاً عن مخطوط الأزهر الشريف رقم (66439 تصوف).

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أنّ كتب التصوّف الإسلامي، تساعد المُريد على الاطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحِكَم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ: مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: 21] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3، 4] وقوله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22ـ 23].

كتبه الشيخ

الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الماتن الشيخ عبد الكريم الجيلي

(1050 ـ 1143 هـ ـ 1641 ـ 1731م)

● هو العارف بالله تعالى المحقق الشيخ عبد الغني النابلسي بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم الدمشقي الصالحي الحنفي النقشبندي القادري المعروف بالنابلسي: شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف في شتى العلوم من فقه وعقيدة وتصوّف، متصوّف على مشرب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي صاحب فلسفة وحدة الوجود المتوفى سنة 638هـ، والشيخ عبد الكريم الجيلي صاحب فلسفة الإنسان الكامل النبي محمد ﷺ ووراثه الكمّل المتوفى سنة 805هـ.

● ولد ونشأ في دمشق. ورحل إلى بغداد، وعاد إلى سورية، فتنقل في فلسطين ولبنان، وسافر إلى مصر والحجاز، واستقر في دمشق، وتوفي فيها في 24 شعبان سنة 1143هـ.

● له مصنّفات كثيرة، منها: «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية» و«تعطير الأنام في تعبير المنام» و«ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث» فهرس لكتب الحديث الستة، و«علم الفلاحة» و«نفحات الأزهار على نسمات الأسحار» و«إيضاح الدلالات في سماع الآلات» و«ذيل نفحة الريحانة» و«حلة الذهب الإبريز، في الرحلة إلى بعلبك وبقاع العزيز» و«الحقيقة والمجاز، في رحلة الشام ومصر والحجاز» و«قلائد المرجان في عقائد أهل الإيمان» رسالة في العقيدة، و«جواهر النصوص في شرح فصوص الحكم لابن عربي» تصوف جزآن وهو مطبوع في الدار بتحقيقنا و«شرح أنوار التنزيل للبيضاوي» و«كفاية المستفيد في علم التجويد» و«الاقتصاد في النطق بالضاد» تجويد، و«مناجاة الحكيم ومناغاة القديم» تصوّف، و«خمرة الحان ورنة الألحان» شرح رسالة الشيخ أرسلان تصوف، وهو مطبوع في الدار و«خمرة بابل وغناء البلابل» من شعره،

و«ديوان الحقائق ومجموع الرقائق» من شعره في التصوف، وهو مطبوع في الدار و«الرحلة الحجازية والرياض الأنسية» و«كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين» و«الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان» فقه و«شرح المقدمة السنوسية» عقيدة و«رشحات الأقلام في شرح كفاية الغلام» في فقه الحنفية. و«ديوان الدواوين» مجموع شعره، و«كشف الستر عن فرضية الوتر» رسالة في الفقه، و«لمعات الأنوار في المقطوع لهم بالجنة والمقطوع لهم بالنار» رسالة، و«خمس مجموعات»، وله كتب أخرى غيرها.

ترجمة الماتن الشيخ عبد الكريم الجيلي

هو قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي نسبة إلى جيلان التابعة لإقليم طبرستان، وقال بطرس البستاني في دائرة المعارف: «جيلان أو كيلان» تقع في الجزء الشمالي الغربي من بلاد فارس (6/ 615).

وهو سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني لذلك يُضاف إلى اسمه لقب القادري. وهو من مُتابِعِي الطريقة القادرية.

وكان الجيلي متضلِّعًا بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة إلا أنه اشتهر بالكتابة في علم الحقيقة أي العلم المتعلّق بالركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل الذي ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول :الإسلام، والثاني: الإيمان، والثالث: الإحسان.

تتلمذ الشيخ الجيلي على شيخه الشيخ إسماعيل الجبرتي.

وُلِدَ الجيلي سنة 767 هـ/ 1365 م، وتوفي سنة 832 هـ/ 1428 م[1].

---

(1) للتوسّع في ترجمته يُرجَع للمصادر التالية:

1 ـ بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) النسخة العربية 7/ 248.

2 ـ الجيلي (المناظر الإلهية (11 ـ 41).

3 ـ البغدادي (هدية العارفين) 1/ 610.

4 ـ الزركلي (الأعلام) 4/ 175.

5 ـ كحالة (معجم المؤلّفين) 5/ 313.

6 ـ محمد عيسى صالحية (المعجم الشامل للتراث المطبوع) 2/ 114.

7 ـ L'homme parfait chez Al-Jili- Par dr. Assem Al-kayali, Dar Al-kotob Al-Ilmiyah, beyrouth- Liban.

مؤلّفاته

ترك الشيخ عبد الكريم الجيلي عدداً من المؤلّفات الهامة كلها في علم الحقائق الإلـهية. وهذه المؤلّفات لم يُنشَر منها إلا القليل فضلاً عن أن هناك عددًا منها لم يُعرَف عنها شيئًا سوى ما ذكره الجيلي نفسه في بعض مؤلّفاته. وهذه المؤلّفات هي التالية:

1 ـ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. وهو من أهم كتبه وأشهرها، وهو مطبوع عدة طبعات.

2 ـ الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم. مطبوع.

3 ـ المناظر الإلـهية. مطبوع.

4 ـ الإسفار عن نتائج الأسفار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار. مطبوع.

5 ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية. مطبوع.

6 ـ الكمالات الإلــهية في الصفات المحمدية. مطبوع.

7 ـ شرح أسرار الخلوة لابن عربي. مطبوع.

8 ـ القصيدة العينية. مطبوع.

9 ـ قصيدة الدّرّة الوحيدة في اللجّة السعيدة.

10 ـ حقيقة اليقين وزلفة التمكين.

11 ـ قطب العجائب وفلك الغرائب.

12 ـ المملكة الرّبّانية المُودَعَة في النشأة الإنسانية.

13 ـ الخِضَمّ الزاخر والكنز الفاخر في تفسير القرآن.

14 ـ جنة المعارف وغاية المريد والعارف بالفارسية.

15 ـ المرقوم في سرّ التوحيد المحمود والمعلوم.

16 ـ حقيقة الحقائق التي هي من وجه للحق ومن وجه للخلائق.

17 ـ غنية أرباب السّماع.

18 ـ مراتب الوجود. مطبوع.

19 ـ الغايات في معرفة معاني الآيات والأحاديث المتشابهات. وهو تعريف بالذات الإلـهية.

20 ـ بداية مبحث في معرفة الله.

21 ـ الناموس الأعظم والقاموس الأقدم. وهذا الكتاب عبارة عن أربعين جزءًا وهو متناثر في المكتبات وغير كامل حتى الآن.

22 ـ سرّ النور المتمكّن.

23 ـ زُلفة التمكين. لا يزال مخطوطًا.

24 ـ لوامع البرق الموهن.

25 ـ السفر القريب نتيجة السفر الغريب.

26 ـ رسالة أربعين في أحوال الصوفية. طبع أدنبرغ.

27 ـ لسان القدر بكتاب نسيم السحر. مطبوع.

28 ـ عقيدة الأكابر المقتبسة من أحزاب وصلوات. مطبوع.

29 ـ روضة الواعظين.

30 ـ قاب قوسين وملتقى الناموسين.

31 ـ كشف الغايات شرح كتاب التجليات. مطبوع.

32 ـ منازل المنازل في معنى التقرّبات بالفوائت النوافل.

33 ـ عيون الحقائق في كل ما يحصل من علم الطرائق.

34 ـ نسيم السحر سبب الأسباب والكنز لمن أيقن واستجاب. مطبوع.

صورة الورقة الأولى من المخطوط

في المستوى كتبنا المنح الشريفة المحمدية من ذكر صاحبها
ان ذكرها لا نظيرها لكن لم تكن عنده بحيث يفهمها
كل احد بل ذكرها يوقع في بعض ابرار السامعين ولوازمهم
خلاف ما هو المراد منها فربما بني فهمه الانسان
بفهم المستقل لا يقدر ان يفهم حينئذ ذلك الانسان
بنفسه ولا يترجم له بجميع اسرار المنطقية قال تعالى
ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور
ولا تظن ان عدم امكان كشفها قولا خلاف المدعى
المفهوم اجمالا عند كل من كان يفهم بعض الرموز
ممن يطالع هذه المنظومة بنحو لب كرمي فمثلا
اصل الكمال بما ترجمه الجمال واصل الضلال ثم
انه رضي الله عنه اخبر انه اقتفى آثار محمد صلى الله
عليه وسلم في جميع ذلك وجميع حكمته وهو تابع فيه
ذلك له صلى الله عليه وسلم وهو صلى الله
عليه وسلم حقيقة ذلك الروح المذكور في حضرة
خاصة ودائرة اصطفائية لانه تحقق ولما تحقق
ان ناظم قدس الله سره بحقيقة الروح المذكور
علي وجه خاص بطريق الارث من المقام المحمدي
قال فاعجب لمتبوع ما هو تابع يعم اعرب
عن الحقيقة المحمدية بقوله نبي له فوق المكانة
رتبة اي فوق كل رتبة عالية ومنزلة سامية

نسلها

تصل اليها الصديقون وترتقي اليها المقربون مرتبة لا يمكن
ان تدانى ومنزلة لا يتصور لمن تترك بشر احدث
لمن حيث صلى الله عليه وسلم اي من ذاته الشريفة
للناصلين اي الى رب المهيمن بشراب الحب
والتتبع فتلك كل منهم مشرب خاص من منبع من
حضرة خاصة لكامل خاص قال تعالى قد علم كل
اناس مشربهم ، وقال انشد الشاعر
عباراتنا شتى وحسنك واحد ،
وكل الى ذاك الجمال يشير ،
ثم انه لما ذكر السلام على النبي
صلى الله عليه وسلم وهو مبني على مناسبة
صلى الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا اخبر
انه سلامه منه دائم ملازم وكذلك سلامه
على جميع الآل وجميع الاصحاب على هذا المعنى ولا
تستبعد فان الله تعالى الاخلاق الاخرى من نور محمد
صلى الله عليه وسلم كما ورد في الحديث
الشريف عن صحابه فاذا انكشف النور من نفسه
بانمحاق عقله ولا انمحاق حسه كان ما ذكرناه حجة
نقل عن بعض العارفين انه كان اذا اشكل عليه
الجواب عن مسألة يتوارى في حلقته وهو بين
جماعته فتواحق ان سأل النبي صلى الله عليه وسلم

صورة الورقة ما قبل الأخيرة من المخطوط

ثم يدخل راسه في جيب قميصه ثم يرفعه ويقول لبيك
فقال كذا كنا فيكون ذلك هو الجواب الحق
وقد ورد عن العارفين شيء كثير مما يعلو ما ذكرنا
وبالجملة فلا يعرف الحق الا اهل الحق ولا يطلع على
الحقيقة المحمدية الا اهلها قال تعالى انما يريد
الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت
ويطهركم تطهيرا ومن لم يكن من اهل البيت فهم من
البهائم يطوفون حول البيت ولا يدخلونه [illegible]
التلبيس فهم اناس من غير روح [illegible] هالكون
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين هذا
اخر ما قدره الله تعالى علينا من شرح
العينية للامام الجيلي رضي الله عنه والمقصود
من الناظر في هذا الكتاب ان لا يفهم كلامنا فيه
ولا في جميع ما صنفناه في هذا الشان الا على مقتضى
ما اصطلحنا عليه من قواعد اهل السنة والجماعة
والحذر كل الحذر ان يلقي اليه الشيطان معنى
فاسدا عند مطالعته كلامنا ويوهمه ان الظاهر من
كلامنا نشير اليه فيكون زائغا عن طريق السنة
المحمدية وعن مقصودنا بذلك فيكون مفتريا على الله
وعلينا فان الله تعالى ما امرنا بالاستعاذة عند تلاوة
كلامه

كلامه القديم الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه تنزيل من حكيم حميد الا لعلمه تعالى بان الشيطان
قد يلقي في انفسنا ما لم يكن صوابا من معاني كلام الله
تعالى عند قراءة القرآن فكيف لا يلقي في الافهام
غير الصواب عند سماع كلام [illegible] مخلوق [illegible] مثلي ممن
هو من عامة المؤمنين ونسأل الله تعالى ان ينفع
بكتابي هذا جميع المسلمين والمسلمات في جميع الازمان وان
يوفقهم للفهم على طريق الصواب وان لا يجعله وبالا
علينا ولن يجمع بيننا هنا في الدنيا من التعب والمحن
وفي الاخرة من عذاب القبر وسوء الدار وان يصلح
احوالنا واحوال المسلمين ويغفر لنا ولوالدينا واخواننا
الذين سبقونا بالايمان ولمشايخنا واباينا وامهاتنا
وذرياتنا واصحابنا والمسلمين اجمعين قال مؤلفه
رضي الله عنه وقد فرغنا من هذا الكتاب وفرغنا من تبييضه
يوم الجمعة المباركة ختام شهر محرم الحرام سنة ١٠٨٦ ست
وثمانين بعد تمام الالف من هجرة من خلقه الله على
اكمل وصف صلى الله عليه وعلى اله وصحبه وسلم [illegible]
تحريرا في يوم الاثنين المبارك خامس شهر رجب الاصم الفرد
الذي هو من شهور سنة ١٠٩٢ على يد كاتبه [illegible] الذي
لا يقدر يسمي نفسه من كثرة ذنوبه الفقير [illegible]
[illegible] ولوالديه
ولمن نظر في هذا الكتاب ولجميع
المسلمين امين
امين
تم

صورة الورقة الأخيرة من المخطوط

القصيدة العينية للعارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلي قدّس سرُّه

فُؤادٌ بِهِ شَمسُ المَحَبَّةِ طالِعُ   وَلَيسَ لِنَجمِ العَذلِ فِيهِ مَواقِعُ

صَحا الناسُ مِن سُكرِ الغَرامِ وَمَا صَحا   وَأَفرق كُلٌّ وَهوَ في الحانِ جامِعُ

حُمَيّا هَواهُ عَينُ قَهوَةِ غَيرِهِ   مُدامٌ دَواماً تَقتَنيها الأَضالِعُ

هَوى وَصَباباتٌ وَنارُ مَحَبَّةٍ   وَتُربَةُ صَبرٍ سَقَتها المَدامِعُ

وَأَولَعَ قَلبي مِن زَورِدٍ بَمائِهِ   وَيا لَهفي كَم ماتَ ثَمَّةَ وَالِعُ

وَلي طَمَعٌ بَينَ الأَجارِعِ عَهدُه   قَديمٌ وَكَم خابَت هُناكَ المَطامِعُ

أَيا زَمَنَ الرَّندِ بَينَ لَعلَعٍ   تَقَضَّى لَنا هَل أَنتَ يا عَصرُ راجِعُ

لَقَد كانَ لي في ظِلِّ جاهِكَ مَرتَعٌ   هَنيءٌ وَلي بِالرَّقمَتينِ مَرابِعُ

أَجُرُّ ذُيولَ اللَّهوِ في ساحَةِ اللِّقا   وَأَجني ثِمارَ القُربِ وَهيَ أَيانِعُ

وَأَشرَبُ راحَ الوَصلِ صَرفاً بِراحَةٍ   تُصَفِّقُ بِالراحاتِ مِنها الأَصابِعُ

تَصَرَّمَ ذاكَ العُمرُ حَتّى كَأَنَّني   أَعيشُ بِلا عُمرٍ وَلِلعَيشِ مانِعُ

وَمُذ مَرَّ العَيشُ وَابيَضَّ لِمَّتي   تَسَوَّد صُبحي فالدُّموعُ فَواقِعُ

وَسِربٍ مِنَ الغِزلانِ قَينَةٌ   لَنا هُنَّ في سَقطِ العُذَيبِ مَراتِعُ

سَفَرنَ بُدوراً مُذ قَلَبنَ عَقارِباً   مِنَ الشَّعرِ خِلنا أَنَّهُنَّ بَراقِعُ

رَعى اللَّهُ ذاكَ السِّربَ وَسَقى الـ   ـحمى وَلا ضُيِّعَت سِربٌ فَإِنّي ضائِعُ

صَلِيتُ بِنارٍ أضرَمَتها ثَلاثةٌ … غَرامٌ وَشَوقٌ وَالدِّيارُ الشَّواسِعُ

يُخَيَّلُ لي أنَّ العُذَيبَ وَمَاءَهُ … مَنامٌ وَمِن فَرطِ المُحالِ الأجارِعُ

فَلا نارَ إلّا ما فُؤادي مَحَلُّهُ … وَلا السُّحبَ إلّا ما الجُفونُ تُدافِعُ

وَلا وَجدَ إلّا ما أُقاسيهِ في الهَوى … وَلا المَوتَ إلّا ما إلَيهِ أُسارِعُ

فَلَو قيسَ ما قاسَيتُهُ بِجَهَنَّم … مِنَ الوَجدِ كانَت بَعضَ ما أنا قارِعُ

جُفوني بِها نوحٌ وَطوفانُها الدِّما … وَنَوحي رَعدٌ وَالزَّفيرُ اللَّوامِعُ

وَجِسمي بِهِ أيّوبُ قَد حَلَّ لِلبَلا … وَكَم مَسَّني ضُرٌّ وَما أنا جازِعُ

وَما نارُ إبراهيمَ إلّا كَجَمرَةٍ … مِنَ الجمرِ اللاتي خَبَتها الأضالِعُ

لِسِرّي في بَحرِ الصبابَةِ يُونُسٌ … تَلَقَّمَهُ حوتُ الهَوى وَهو خاشِعُ

وَكَم في فُؤادي مِن شُعَيبِ كَآبَةٍ … تَشَعَّبَ مُذ شَطَّت مَزاراً مَرابِعُ

حَكى زَكَرِيّا وَهنَ عَظمي مِنَ الضَّنا … أيَحيى إصطِباري وَهوَ بِالمَوتِ نافِعُ

أيا يوسُفَ الدُّنيا لِفَقدِكَ في الحَشا … مِنَ الحُزنِ يَعقوبٌ فَهَل أنتَ راجِعُ

أتَينا تِجارَ الذُّلِّ نَحوَ عَزيزِكُم … وَأرواحُنا المُزجاةُ تِلكَ البَضائِعُ

فَإن يَكُ عَطفاً أنتَ أهلٌ وَأهلُهُ … وَإن لَم يَكُن كانَ العِتابُ مَواقِعُ

فَكُلُّ الَّذي يَقضيهِ فِيَّ رِضاكُمُ … مَرامي وَفَوقَ القَصدِ ما أنا صانِعُ

تَلَذُّ لِيَ الآلامُ إذ أنتَ مُسقِمي … وَإن تَمتَحِنّي فَهيَ عِندي صَنائِعُ

تَحَكَّم بِما تَهواهُ فِيَّ فَإنَّني … فَقيرٌ لِسُلطانِ المَحَبَّةِ طائِعُ

حَبَبتُكَ لا لي بَل لِأنَّكَ أهلُهُ … وَما لِي في شَيءٍ سِواكَ مَطامِعُ

فَصِل أن تَرى أو دَع وَعَدِّ عَنِ اللِّقا … وَإلّا فَدونَ الوَصلِ ما أنا قانِعُ

تَمَكَّنَ مِنّي الحُبُّ فَامتَحَقَ الحَشا … وَأتلَفَني الوَجدُ الشَّديدُ المُنازِعُ

وَأشغَلَني شُغلي بِها عَن سوائِها ... وَأذهَلَني عَنّي الهَوى وَالهَوامِعُ

وَقَد فَنِيَت روحي لِقارِعَةِ الهَوى ... وَأفنيتُ عَن مَحوي بِما أنا قارِعُ

فَقامَ الهَوى عِندي مَقاما فَكُنتُهُ ... وَغُيِّبتُ عَن كَوني فَعِشقِيَ جامِعُ

غَرامي غَرامٌ لا يُقاسُ بِغَيرِهِ ... ودُونَ هُيامي لِلمُحِبّينَ مانِعُ

فُؤادِيَ وَالتَّبريحُ لِلروحِ لازِمٌ ... وَسُقمي وَالآلامُ لِلجِسمِ تابِعُ

وُلوعي وَأشجاني وَشَوقي وَلَوعَتي ... لِجَوهَرِ ذاتي فِي الغَرامِ طَبائِعُ

غَرامِي نارٌ وَالهَوى فَهوَ الهَوا ... وَتُربيَ وَالما ذِلَّتي وَالمَدامِعُ

يَلومُ الوَرى نَفسِي لِفَرطِ جُنونِها ... وَلَيسَ بِأُذني لِلمَلامِ مَسامِعُ

وَمُذ أوتَرَت أحشايَ حُبَّك إنَّني ... لِسَهمِ قِسِيِّ النائِباتِ مَواقِعُ

وَما لِيَ إن حَلَّ البَلاءُ التِفاتَةٌ ... وَما لِي إن جاءَ النَّعيمُ مَراتِعُ

وَما أنا مَن يَسلو بِبَعضِ غَرامِهِ ... عَنِ البَعضِ بَل بِالكُلِّ ما أنا قانِعُ

وَشَوقي ما شَوقي وُقيتُ فَإنَّهُ ... جَحيمٌ لَهُ بَينَ الضُّلوعِ فَراقِعُ

وبِي كَمَدٌ لو حُمِّلَتهُ جِبالُها ... لَدُكَّت بِرُضواها وَهُدَّت صَوامِعُ

وَلي كَبِدٌ حَرّاءُ مِن ظَمَإٍ بِها ... إلَيكَ وَلَم يَبرُدْ غَليلاً مُصانِعُ

يُخَيِّلُ لي أنَّ السَّماءَ عَلى الثَّرى ... طَبَقنَ وَأنّي بَينَ ذَلِكَ واقِعُ

وَنَفسِي نَفسٌ أيُّ نَفسٍ أبِيَّةٌ ... تَرى المَوتَ نَصبَ العَينِ وَهِيَ تُسارِعُ

فَهَمِّي وَفَهمي ذا عَلَيكَ وَفيكَ ذا ... وَجِدّي وَوَجدي زائِدٌ وَمُتابِعُ

وَعَزمي وَزَعمي أنَّهُ فَوقَ كلِّ ما ... يُرادُ وَظَنّي إنَّما هُوَ واقِعُ

تُسامِرُ عَينايَ السُّها بِسُهادِها ... وَتَسأَلُ بَل ما سالَ إلّا المَدامِعُ

وَيَرقُبُ مِنكَ الطَّيفَ جَفنِيَ دُجنَةً ... وَكَم زارَهُ طَيفٌ هُوَ هاجِعُ

وَيُخبِرُني عَنكَ الصَّبا وَهوَ جاهِلٌ فَتلتَذُّ مِن أخبارِكُم لي مَسامِعُ

إذا غَرَّدَت وَرقا عَلى غُصنِ بانَةٍ وَجاوَبَ قُمريٌّ عَلى الأيكِ ساجِعُ

فَأذنِيَ لَم تَسمَع سِوى نَغمَةِ الهَوى وَمِنكُم فَإنّي لا مِنَ الطَّيرِ سامِعُ

وَمِن أيِّ أبنٍ كانَ إن هَبَّ ضايِعٌ فَلي فيهِ مِن عِطرِ الغَرامِ بَضائِعُ

وَإن زَمجَرَ الرَّعدُ الحِجازِيُّ بِالصَّفَا وَأبرَقَ مِن شُعبى جِيادَ لَوامِعُ

يُصَوِّرُ لي الوَهمُ المُخَيِّلُ أنَّ ذا سَناكَ وَهذا مِن ثَناياكَ ساطِعُ

فَأسمَعُ عَنكُم كُلَّ أخرسَ ناطِقاً وَأبصِرُكُم في كُلِّ شَيءٍ أطالِعُ

إذا شاهَدتَ عَيني جَمالَ مَلاحَةٍ فَما نَظَري إلّا بِعَينِكَ واقِعُ

وَما اهتَزَّ مِن قَدٍّ قَنا تَحتَ طَلعَةٍ مِنَ البَدرِ أبدَت أم خَبَتها البَراقِعُ

وَلا سَلسَلَت أعناقَها بِغَرامِها تَصافِيفَ جَعدٍ خَطُّهُنَّ وَقائِعُ

وَلا نَقَّطَت خالَ المَلاحَةِ بَهجَةٌ عَلى وَجنَةٍ إلّا وَحَرفُكَ بارِعُ

فَأنتَ الّذي فيهِ يَظهَرُ حُسنُهُ بِهِ لا بِنَفسي مالَهُ مَن يُنازِعُ

وَإن حَسَّ جِلدي مِن كَثيفٍ خُشونَةٍ فَلي فيهِ مِن ألطافِ حُسنِكَ رادِعُ

تَخِذتُكَ وَجهاً وَالأنامَ بِطانَةً فَأنجُمُهُم غابَت وَشَمسُكَ طالِعُ

فَديني وَإسلامي وَتَقوايَ إنَّني بِحُسنِكَ فانٍ لِأتمارِكَ طائِعُ

إذا قيلَ قُل لا قُلتُ غَيرَ جَمالِها وَإن قيلَ إلّا قُلتُ حُسنُك شايِعُ

أصَلّي إذا صَلّى الأنامُ وَإنَّما صَلاتي بِأنّي لِاعتِزازِكَ خاضِعُ

أكَبِّرُ في التَّحريمِ ذاتَكَ عَن سِوى وَاسمُكَ تَسبيحي إذا أنا خاشِعُ

أقومُ أصَلّي أي أقيمُ عَلى الوَفا بِأنَّكَ فَردٌ واحِدُ الحُسنِ جامِعُ

وَأقرَأُ مِن قُرآنِ حُسنِكَ آيَةً فَذَلِكَ قُرآني إذا أنا راكِعُ

وَأسجُدُ أي أفنى وَأفنى عَنِ الفنا
فَأسجُدُ أخرى وَالمُتَيَّمُ والِعُ

وَقَلبِيَ مُذ أبقاهُ حُسنُكَ عِندَهُ
تَحِيّاتُهُ مِنكُم إلَيكُم تُسارِعُ

صِيامي هُوَ الإمساكُ عَن رُؤيَةِ السوى
وَفِطرِيَ أنّي نَحوَ وَجهِكَ راجِعُ

وَبَذلِي نَفسي في هَواكَ صَبابَةً
زَكاةُ جَمالٍ مِنكَ في القَلبِ ساطِعُ

أرى مَزجَ قَلبي مَع وُجودي جَنابَةً
فَماءُ طَهوري أنتَ وَالغَيرُ مائِعُ

أيا كَعبَةَ الآمالِ وَجهُكَ حجَّتي
وَعُمرَةُ نُسكي أنَّني فيكَ والِعُ

وَتَجرِيدُ نَفسي عَن مَخيطِ صِفاتِها
بِوَصفِكَ إحرامي عَن الغَيرِ قاطِعُ

وَتَلبِيَتي أنّي أذَلِّلُ مُهجَتي
لِما مِنكَ في ذاتي مِنَ الحُسنِ لامِعُ

وَكانَت صِفاتٌ مِنك تَدعو إلى العُلا
لِذاتي فَلَبَّت فاستَبانَت شَواسِعُ

وَتَركي لِطيبي وَالنكاحِ فَإنَّ ذا
صِفاتي وَذاتي فَهُنَّ مَوانِعُ

وَإعفاءُ حَلقِ الرَّأسِ تَركُ رِياسَةٍ
فَشَرطُ الهَوى أنَّ المُتَيَّمَ خاضِعُ

إذا تَرَكَ الحُجّاجُ تَقليمَ ظُفرِهِم
تَرَكتُ مِنَ الأفعال ما أنا صانِعُ

وَكُنتُ كَالآتِ وَأنتَ الَّذي بِها
تُصَرِّفُ بِالتَّقديرِ ما هُوَ واقِعُ

وَما أنا جَبرِيُّ العَقيدَةِ إنَّني
مُحِبٌّ فَنى فيمَن جَبَتهُ الأضالِعُ

فَها أنا في تَطوافِ كَعبَةِ حُسنِهِ
أدورُ وَمَعنى الدَّورِ أنِّيَ راجِعُ

وَمُذ عَلِمَت نَفسي صِفاتِكَ سَبعَةً
فَأعدادُ تَطوافي حِماكَ سَوابِغُ

أُقَبِّلُ خالَ الحُسنِ في الحَجَرِ الَّذي
لَنا مِن قَديمِ العَهدِ فيهِ وَدائِعُ

وَمَعناهُ أنَّ النَّفسَ فيها لَطيفَةٌ
بِها تُقبَلُ الأوصافُ وَالذاتُ شائِعُ

وَأستَلِمُ الرُّكنَ اليَمانِيَّ إنَّهُ
بِهِ نَفَسُ الرَّحمٰنِ وَالنَّفسُ جامِعُ

وَأختِمُ تَطوافَ الغَرامِ بِرَكعَةٍ
مِنَ المَحوِ عَمّا أحدَثَتهُ الطَّبائِعُ

تُرى هَل لِموسى القَلب مِن زَمزَمِ اللِّقا مَراضِعُ لا حُرِّمنَ تِلكَ المَراضِعُ

فَتَذهَبُ نَفسي في صَفاءِ صِفاتِكُم لِتَسعى بِمَروَ الذاتِ وَهيَ تُسارِعُ

فَلَيسَ الصَفا إِلّا صَفايَ وَمَروَتي بِأَني عَلى تَحقيقِ حَقّيَ صادِعُ

وَما القَصرُ إِلّا عن سَواكُم حَقيقَةً وَلا الحَلقُ إِلّا تَركُ ما هُوَ قاطِعُ

وَلا عَرَفاتُ الوَصلِ إِلّا جَنابُكُم فَطوبى لِمَن في حَضرَةِ القُربِ راتِعُ

عَلى عِلمِيَ مَعناكَ ضِدّانِ جُمِّعا وَيا لَهفيَ ضِدّانِ كَيفَ التَّجامُعُ

بِمُزدَلِفاتٍ في طَريقِ غَرامِكُم عَوائِقُ مِن دونِ اللِّقا وَقَواطِعُ

فَإِن حَصَلَ الإِشعارِ في مَشعَرِ الهَوى وَساعَدَ جَذبُ العَزمِ فَالفَوزُ واقِعُ

عَلى مَشعَرِ التَّحقيقِ عَظَّمتُ في السوى شَعائِرَ حُكمٍ أَصَّلَتها الشَّرائِعُ

وَكَم مِن مُنًى لي في مِنى حَضَراتِكُم وَيا حَسَراتي وَالمُحَسَّر شاسِعُ

رَمَيتُ جِمارَ النَّفسِ بِالروحِ فَانتَشَت جُهَنَّمُها ماءً وَصاحَت ضَفادِعُ

وَأُبدِلَ رُضوانٌ بِمالِكَ وَانتَشا بِها شَجَرُ الجَرجيرِ وَالغُصنُ يانِعُ

فَفاضَت عَلى نَفسي يَنابيعُ وَصفِها وَناهيكَ صِرفُ الحَقِّ تِلكَ اليَنابِعُ

فَطُفتُ طَوافاً لِلإِفاضَةِ بِالحِمى وَقُمتُ مَقاماً لِلخَليلِ أُبايِعُ

فَمُكِّنتُ مِن مُلكِ الغَرامِ أَنا مَليكٌ وَسَيفي بِالصَبابَةِ قاطِعُ

وَحَقَّقتُ عِلماً وَاقتِدارَ جَميعِ ما تَضَمَّنَهُ مُلكي وَما لي مُنازِعُ

فَلَمّا قَضَينا النُّسكَ مِن حَجَّةِ الهَوى وَتَمَّت لَنا مِن حَيِّ لَيلى مَطامِعُ

شَدَدنا مَطايا العَزمِ نَحوَ مُحَمَّدٍ وَطُفنا وَداعاً وَالدُّموعُ هَوامِعُ

وَجُبنا بِتَهذيبِ النُّفوسِ مَفاوِزاً سَباسِبَ فيها لِلرِّجالِ مَصارِعُ

حِمًى دَرَسَت لِلعاشِقينَ طُروقُهُ عَزيزٌ وَكَم خابَ فِي العِزِّ طامِعُ

مَحَلٌّ مَجالِي القُربِ حَالت رُسومُهُ ... وَأَوجٌ مَنيعٌ دونَهُ البَرقُ لامِعُ

يُنَكِّسُ رَأسُ الريحِ عِندَ ارتِفاعِهِ ... وَكَم زَالَ عَنهُ السُّحبُ وَالغَيثُ هامِعُ

يُرى تَحتَهُ بِهرامُ في الأوجِ ساجِداً ... وَكيوانُ مِن فَوقِ السَّماواتِ راكِعُ

وَكَم رامِحٍ مُذ رَامَهُ أعزَلاً ... وَفي قَلبِهِ مِن عَقرَبِ العقرِ لاذِعُ

سَرَيتُ بِهِ وَاللَّيلُ أدجى مِنَ العَمى ... عَلى بازِلٍ أفديهِ ما هُوَ ضائِعُ

يَجوبُ الفَلا جَوبَ الصَّواعِقِ في الدُّجى ... وَيَرحَلُ عَن مَرعى الكَلا وَهوَ جائِعُ

وَإن مَرَّ بعدَ العُسرِ بِالماءِ إنَّهُ ... عَلى ظَمَإٍ عَن ذاكَ بِالسَّيرِ قانِعُ

هِيَ النَّفسُ نِعمَت مَركَباً مُطمَئِنَّةً ... فَلَيسَ لَها دونَ المرامِ مَوانِعُ

فِيا سَعدُ إن رُمتَ السَّعادَةَ فَاغتَنِم ... فَقَد جاءَ في نَظمِ البَديعُ بَدائِعُ

مَفاتيحُ أقفالِ الغُيوبِ أتَتكَ في ... خَزائِنِ أقوالي فَهَل أنتَ سامِعُ

كَشَفتكَ أسرارَ الشَّريعَةِ فَانحُها ... فَما وُضِعَت إلّا لِتِلكَ الشَّرائِعُ

وَها أنا ذا أُخفي وَأُظهِرُ تارَةً ... لِرَمزِ الهَوى ما السِّرُّ عِندِيَ ذائِعُ

وَإيّاكِ أعني فَاسمَعي جارَتي فَما ... يُصَرِّحُ إلّا جاهِلٌ أو مُخادِعُ

وَلَكِنَّني آتيكَ بِالبَدرِ أبلَجاً ... وَأُخفيهِ أُخرى كَي تُصانَ الوَدائِعُ

خُذِ الأمرَ بِالإيمانِ مِن فَوقِ أوجِهِ ... وَنازِع إذا نَفسٌ أتَتكَ تُنازِعُ

فَلِلمَرءِ في التَّنزيلِ أوفى أدِلَّةٍ ... وَلَكِن قَلبي بِالحَقائِقِ وَالِعُ

وَفي السُّنَّةِ الزَّهراءِ كُلُّ عِبارَةٍ ... بِها مِن إشاراتِ الغَرامِ وَقائِعُ

فَإن كُنتَ مِمَّن مالَهُ بَدُ مَأخَذٍ ... سَوِيٌّ بِتَصريحِ التَشكُّلِ قانِعُ

سَأُنشي رِواياتٍ إلى الحَقِّ أسنِدَت ... وَأَضرِبُ أمثالاً لِما أنا واضِعُ

وَأوضِحُ بِالمَعقولِ سِرَّ حَقيقَةٍ ... لِمَن هُوَ ذو قَلبٍ إلى الحَقِّ راجِعُ

تَجَلّى حَبيبي في مَرائي جَمالِهِ   فَفي كُلِّ مَرأى لِلحَبيبِ طَلائِعُ

فَلَمّا تَبَدّى حُسنُهُ مُتَنَوِّعاً   تَسَمّى بِأَسماءٍ فَهُنَّ مطالِعُ

وَأَبرَزَ مِنهُ فيهِ آثارَ وَصفِهِ   فَذَلِكُمُ الآثارُ مَن هُوَ صانِعُ

فَأَوصافُهُ وَالاسمُ وَالأَثَرُ الَّذي   هُوَ الكَونُ عَينُ الذاتِ وَاللَّهُ جامِعُ

فَما ثَمَّ مِن شَيءٍ سِوى اللَّهُ في الوَرى   وَما ثَمَّ مَسموعٌ وَما ثَمَّ سامِعُ

هُوَ العَرشُ وَالكُرسيُّ وَالمَنظَرُ العَلي   هُوَ السِّدرَةُ اللاتي إِلَيها المَراجِعُ

هُوَ الأَصلُ حَقًّا وَالهَيولي مَعَ الهَبا   هُوَ الفَلَكُ الدَّوّارُ وَهوَ الطَّبائِعُ

هُوَ النورُ وَالظَّلماءُ وَالماءُ وَالهَوا   هُوَ العُنصُرُ النارِيُّ وَهوَ البَلاقِعُ

هُوَ الشَّمسُ وَالبَدرُ المُنيرُ هُوَ السُّها   هُوَ الأُفقُ وَهوَ النَّجمُ وَهوَ المواقِعُ

هُوَ المَركَزُ الحُكمي هُوَ الأَرضُ وَالسَّما   هُوَ المُظلِمُ المِقتامُ وَهوَ اللَّوامِعُ

هُوَ الدارُ وَهوَ الأَهلُ وَالحَيُّ والغَضا   هُوَ الناسُ وَالسُّكّانُ وَهوَ المَراتِعُ

هُوَ الحُكمُ وَالتَّأثيرُ وَالأَمرُ وَالقَضا   هُوَ العِزُّ وَالسُّلطانُ وَالمُتَواضِعُ

هُوَ اللَّفظُ وَالمَعنى وَصورَةُ كُلِّ ما   يُخالُ مِنَ المَعقولِ أَو هُوَ وَاقِعُ

هُوَ الجِنسُ وَهوَ النَّوعُ والفَصلُ إِنَّهُ   هُوَ الواجِبُ الذاتِيُّ وَالمُتَمانِعُ

هُوَ العَرَضُ الطارِيُّ نَعَم وَهوَ جَوهَرٌ   هُوَ المَعدنُ الصَّلدِيُّ وهو الموانِعُ

هُوَ الحَيَوانُ الحَيُّ وَهو حَياتُهُ   هُوَ الوَحشُ وَالإِنسُ وَهوَ السَّواجِعُ

هُوَ القَيسُ بَل لَيلاهُ وَهو بُثَينَةٌ   أَجَل بِشرُها وَالخَيفُ وَهوَ الأَجارِعُ

هُوَ العَقلُ وَهوَ القَلبُ وَالنَّفسُ وَالحَشا   هُوَ الروحُ وَهوَ الجِسمُ وَالمُتَدافِعُ

هُوَ الموجِدُ الأَشياءَ وَهوَ وُجودُها   وَعَينُ ذَواتِ الكُلِّ وَهوَ الجَوامِعُ

بَدَت في نُجومِ الخَلقِ أَنوارُ شَمسِهِ   فَلَم يَبقَ حُكمُ النَّجمِ وَالشَّمسُ طالِعُ

حَقَائِقُ ذاتٍ في مَراتِبِ حَقِّهِ   تُسَمَّى بِاسمِ الخَلقِ وَالحَقُّ واسِعُ

وَفي فيهِ مِن روحي نُفِخت كِنايَةٌ   هَلِ الروحُ إلّا عَينُهُ يا مُنازِعُ

وَنَزِّهْهُ عَن حُكمِ الحُلولِ فَما لَهُ   سِوى وَإِلى تَوحيدِهِ الأَمرُ راجِعُ

فَيا أَحَدِيَّ الذاتِ في عَينِ كَثرَةٍ   وَيا واحِدَ الأَشياءِ ذاتُكَ شائِعُ

تَجَلَّيتَ في الأَشياءِ حينَ خَلَقتَها   فَها هِيَ ميطَت عَنكَ فيها البَراقِعُ

قَطَعتَ الوَرى مِن ذاتِ نَفسِكَ قِطعَةً   وَلَم تَكُ مَوصولاً وَلا فَصلُ قاطِعُ

وَلَكِنَّها أَحكامُ رُتبَتِكَ اقتَضَت   أُلوهِيَّةٌ لِلضِدِّ فيها التَجامُعُ

فَأَنتَ الوَرى حَقّاً وَأَنتَ إِمامُنا   وَأَنتَ لِما يَعلو وَما هُوَ واضِعُ

وَما الخَلقُ في التِمثالِ إِلّا كَثَلجَةٍ   وَأَنتَ بِها الماءُ الَّذي هُوَ نابِعُ

فَما الثَلجُ في تَحقيقِنا غَيرَ مائِهِ   وَغَيرانِ في حُكمٍ دَعَتها الشَرائِعُ

وَلَكِن بِذَوبِ الثَلجِ يُرفَعُ   وَيوضَعُ حُكمُ الماءِ وَالأَمرُ واقِعُ

تَجَمَّعَتِ الأَضدادُ في واحِدِ البَها   وَفيهِ تَلاشَت فَهوَ عَنهُنَّ ساطِعُ

فَكُلُّ بَهاءٍ في مَلاحَةِ صورَةٍ   عَلى كُلِّ قَدٍّ شابَهَ الغُصنَ يانِعُ

وَكُلُّ اسوِدادٍ في تَصافيفِ طُرَّةٍ   وَكُلُّ احمِرارٍ في الطَلائِعِ ناصِعُ

وَكُلُّ كَحيلِ الطَرفِ يَقتُلُ صَبَّهُ   بِماضٍ كَسَيفِ الهِندِ مُضارِعُ

وَكُلُّ اسمِرارٍ في القَوائِمِ كَالقَنا   عَلَيهِ مِنَ الشَعرِ الرَسيلِ شَرائِعُ

وَكُلُّ مَليحٍ بِالمَلاحَةِ قَد زَها   وَكُلُّ جَميلٍ بِالمَحاسِنِ بارِعُ

وَكُلُّ لَطيفٍ جَلَّ أَو دَقَّ حُسنُهُ   وَكُلُّ جَليلٍ وَهوَ بِاللُطفِ صادِعُ

مَحاسِنُ مَن أَنشا ذَلِكَ كُلَّهُ   فَوَحِّد وَلا تُشرِك بِهِ فَهوَ واسِعُ

وَإِيّاكَ أَن تَلفَظَ بِغَيرِيَّةِ البَها   فَما ثَمَّ غَيرٌ وَهوَ بِالحُسنِ بادِعُ

وَكُلُّ قَبيحٍ إن نَسَبتَ لِحُسنِهِ ... أَتَتكَ مَعاني الحُسنِ فيهِ تُسارِعُ

وَلا تَحسَبَنَّ الحُسنَ يُنسَبُ وَحدَهُ ... إِلَيهِ البها وَالقُبحُ بِالذاتِ راجِعُ

يُكَمِّلُ نُقصانَ القَبيحِ جَمالُهُ ... فَما ثَمَّ نُقصانٌ وَلا ثَمَّ باشِعُ

وَيَرفَعُ مِقدارَ الوَضيعِ جَلالُهُ ... إِذا لاحَ فيهِ فَهوَ لِلوَضعِ رافِعُ

فَلا تَحتَجِب عَنهُ لِشَينٍ بِصورَةٍ ... فَخَلفَ حِجابِ العَينِ لِلحُسنِ لامِعُ

وَأَطلِق عِنانَ الحَقِّ في كُلِّ ما تَرى ... فَتِلكَ تَجَلِّياتُ مَن هُوَ صانِعُ

فَقَد خَلَقَ الأَرضِينَ بِالحَقِّ وَالسَّما ... كَذا جاءَ في القُرآنِ إِذ أَنتَ سامِعُ

وَما الحَقُّ إِلّا اللَّهُ لا شَيءَ غَيرُهُ ... فَشَمَّ شَذاهُ فَهوَ في الخَلقِ ضايِعُ

وَشاهِدهُ حَقًّا مِنكَ فيكَ فَإِنَّهُ ... هُوِيَّتُكَ اللاتي بِها أَنتَ يانِعُ

وَفي أَينَما حَقًّا تُوَلّوا وجوهَكُم ... فَثَمَّةَ وَجهُ اللَّهِ هَل مَن يُطالِعُ

فَبِع مِنكَ نَفساً لِلإِلٰهِ وَكُنهُ إِذ ... تَكونُ كَما إِن لَم تَكُن وَهوَ صادِعُ

وَدَع عَنكَ أَوصافاً بِها كُنتَ عارِفاً ... لِنَفسِكَ فيها لِلإِلٰهِ وَدائِعُ

فَشاهِدْ بِوَصفِ الحَقِّ نَفسَكَ أَنتَ هُو ... وَلا تَلتَبِس لِلحَقِّ ما أَنتَ خالِعُ

وَكُن بِاليَقينِ الحَقِّ لِلخَلقِ جاحِداً ... وَجَمعَكَ صِلهُ إِنَّ فَرقَكَ قاطِعُ

وَلا تَنحَصِر بِالاسمِ فَالاسمُ دارِسٌ ... وَلا تَفتَقِر لِلعَينِ فَالعَينُ تابِعُ

وَإِيّاكَ حَزماً لا يَهولُكَ أَمرُها ... فَما نالَها إِلّا الشُّجاعُ المُقارِعُ

حَنانَيكَ وَاحذَر مِن تَأَدُّبِ جاهِلٍ ... فَيا رُبَّ آدابٍ لِقَومٍ قَواطِعُ

وَكُن ناظِراً في القَلبِ صورةَ حُسنِهِ ... عَلى هَيئَةِ المَنقوشِ يَظهَرُ طابِعُ

فَقَد صَحَّ في مَتنِ الحَديثِ تَخَلَّقوا ... بِأَخلاقِهِ ما لِلحَقيقَةِ مانِعُ

وَها هُوَ سَمعٌ بَل لِسانٌ أَجَل يَدٌ ... لَنا هَكَذا بِالنَّقلِ أَخبَرَ شارِعُ

فَعَمَّ قُواناَ وَالجَوارِحَ كَونُهُ ... لِساناً وَسَمعاً ثُمَّ رِجلاً تُسارِعُ

وَلَسنا سِوى هَذي الجَوارِحِ وَالقُوى ... هُوَ الكُلُّ مِنّا ما لِقَولِيَ دافِعُ

وَيَكفيكَ ما قَد جاءَ في الخَلقِ أَنَّهُ ... عَلى صُورَةِ الرَّحمٰنِ آدَمُ واقِعُ

وَلَو لَم تَكُن في وَجهِ آدَمَ عَينُهُ ... لَما سَجَدَ الأَملاكُ وَهيَ خَواضِعُ

وَلَو شاهَدَت عَينٌ لإِبليسَ وَجهَهُ ... عَلى آدَمٍ لَم يَعصِ وَهوَ مُطاوِعُ

وَلَكِن جَرى المَقدورُ فَهوَ عَلى عَمًى ... عَنِ العَينِ إِذ حالَت هُناكَ مَوانِعُ

فَلا تَكُ مَع إِبليسَ في شِبهِ سيرَةٍ ... وَدَع قَيدَهُ العَقلِيَّ فَالعَقلُ رادِعُ

وَغُص في بِحالِ الاتِّحادِ مُنَزِّهاً ... عَنِ المَزجِ بِالأَغيارِ إِذ أَنتَ شاجِعُ

وَإِيّاكَ وَالتَّنزيهَ فَهوَ مُقَيَّدٌ ... وَإِيّاكَ وَالتَّشبيهَ فَهوَ مُخادِعُ

وَشَبِّههُ في تَنزيهِ سُبحاتِ قُدسِهِ ... وَنَزِّههُ في تَشبيهِ ما هُوَ صانِعُ

وَقُل هُوَ ذا بَل غَيرُهُ وَهوَ غَيرُ ما ... عَرَفتَ وَعَينُ العِلمِ فَالحَقُّ شائِعُ

وَلا تَكُ مَحجوباً بِرُؤيَةِ حُسنِهِ ... عَنِ الذّاتِ أَنتَ الذاتُ أَنتَ المُجامِعُ

فَعَينَكَ شاهِدها بِمُحتَدِّ أَصلِها ... فَإِنَّ عَلَيها لِلجَمالِ لَوامِعُ

أُنَيّاتُكَ اللاتي هِيَ القَصدُ وَالمُنى ... بِها الأَمرُ مَرموزٌ وَحُسنُكَ بارِعُ

وَنَفسُكَ تَحوي بِالحَقيقَةِ كُلَّ ما ... أَشَرتُ بِجِدِّ القَولِ ما أَنا خادِعُ

تَهَنَّ بِها وَاعرِف حَقيقَتَها فَما ... كَعِرفانِها شَيءٌ لِذاتِكَ نافِعٌ

فَحَقِّق وَكُن حَقّاً فَأَنتَ حَقيقَةٌ ... وَخَلفَ حِجابِ الكَونِ لِلنورِ ساطِعُ

وَلا تَطلُبَن فيهِ الدَليلَ فَإِنَّهُ ... وَراءَ كِتابِ العَقلِ تِلكَ الوَقائِعُ

وَلَكِن بِإيمانٍ وَحُسنِ تَتَبُّعٍ ... إِذا قُمتَ جاءَتكَ الأُمورُ تَوابِعُ

فَإِن قَيَّدَتكَ النَّفسُ فَاطلِق عِنانَها ... وَسِر مَعها حَتّى تَهونَ الوَقائِعُ

وَبَرهِن لَها التَّحقيقَ عَقلاً مُؤيِّداً بِنَقلٍ بِهِ جاءَت إلَيكَ الشَّرائِعُ

وَثَمَّ أُصولٌ في الطَّريقِ لأهلِهِ وَهُنَّ إلى سُبلِ النَّجاةِ ذَرائِعُ

تَمَسَّك بِها تَنجو وَزِن كُلَّ وارِد بِقِسطاسِها عَدلاً فَثَمَّ قَواطِعُ

وَدَع ما تَراهُ مالَ عَن حَدِّ عَدلِها إلى أن تُفاجِئكَ الشُّموسُ الطَّوالِعُ

فَذاكَ سَبيلي زِدهُ إن تَرِدِ العُلا وَلا تَعدُ عَنكَ تَعتَريكَ القَواطِعُ

وَإيّاكَ فاصبِر لا تَمَلَّ فَإنَّما بِصَبرِ الفَتى جاءَت إليهِ المَطامِعُ

وَهَوِّن عَلى النَّفسِ ارتِكاباً لِهَولِها فَغَيرُ مُحِبٍّ مَن دَهَتهُ الفَجائِعُ

وَرِد كُلَّ حَوضٍ لِلرَّدى فيهِ مَورِداً وَرُدَّ إذا ما العَقلُ جاءَ يُدافِعُ

وَشَمِّر بِبَذلِ النُّصحِ ساقَ عَزيمَةٍ عَلى قَدَمِ الإقدامِ فَالعَجزُ مانِعُ

وَدَع عَنكَ عَلَّ وَعَسى وَلَرُبَّما وَسَوفَ إذا نوديتَ قُمتَ تُسارِعُ

فَلَيسَ لِنَفسٍ غَيرُ حالَةِ وَقتِها وَقَد فاتَ ماضيها وَغابَ المُضارِعُ

وَجَدِّد مَعَ الأنفاسِ صِدقَ إرادَةٍ وَداوِم عَلى الإقبالِ ما أنتَ تابِعُ

وَجَرِّع حَشاكَ السُّمَّ في طاعَةِ الهَوى فَما خابَ مَن في الحُبِّ لِلسُّمِّ جارِعُ

وَعِدَّ عَلى اللَّحَظاتِ أنفاسَكَ الَّتي عَلى غَفَلاتٍ قَد صَدَرنَ زَوامِعُ

وَلا تَنتَظِر أيّامَ صِحَّتِكَ الَّتي تُمَنِّيكَ نَفسٌ فَالأماني خَدائِعُ

وَسِر فَوقَ نيرانِ المَلامِ مُهَرولاً إلَيها فَفي قَصدِ الغَرامِ مَصارِعُ

وَغُضَّ عَنِ الآلامِ جَفنَ مُطالِعٍ ألا إنَّ نَعتَ الحُبِّ نَفسٌ تُنازِعُ

فَكُلُّ البَلا إن خُضتَهُ في هَوائِها هَواناً فَلا لِسِوى عَلَيكَ صَنائِعُ

وَإن شَبَّ نارُ النَّفسِ يَوماً مَلالَها فَصُبَّ سَحاباً بِالتَّصَبُّرِ هامِعُ

وَإن خاطَبَتكَ النَّفسُ يَوماً بِرَجعَةٍ فَشَفِّف لَها كَأساً مِنَ السُّمِّ ناقِعُ

وَعَاقِب وَرَكِّبهَا عَلى مَتنِ نَازِلٍ   بِمَا هُوَ فِيمَا هَالَهَا مُتَدَافِعُ

وَجَرِّد لَهَا مِن غَمدِ عَزمِكَ صَارِماً   يَبُتُّ التَّوانِي لِلعَلائِقِ قَاطِعُ

وَالبَس سَرَاوِيلَ الخَلاعَةِ خَالِعاً   ثِيَابَ الغِنَى تَخلَع عَلَيكَ الخَلائِعُ

وَقُم وَأَقِم حَرباً عَلى النَّفسِ حَاذِراً   فَمَا مَوتُهَا لِلآمِنِينَ مُخَادِعُ

وَدَع عَنكَ آمَالاً فَكَم مِن مُؤَمِّلٍ   لِشُؤمِ هَوى آمَالِهِ العُمرُ ضَائِعُ

وَحَاسِب عَلى الخَطَرَاتِ قَلبَكَ حَافِظاً   لَهُ عَن حَدِيثِ النَّفسِ فَهوَ شَنَائِعُ

وَاضبِط لَهَا الإِحسَاسَ فِيهِ مُرَاقِباً   فَإِنَّ لِنَقشِ الحِسِّ فِي النَّفسِ طَابِعُ

وَوِردُكَ فِي صُبحِ الهَوى وَمَسَائِهِ   أَسًى وَعُيُونٌ بِالدُّمُوعِ هَوَامِعُ

وَقَاطِع لِمَن وَاصَلتَ أَيَّامَ غَفلَةٍ   فَمَا وَاصَلَ العُذَّالُ إِلّا مُقَاطِعُ

وَجَانِبْ جَنَابَ الأَجنَبِي وَلَو أَنَّهُ   لِقُربِ انتِسَابٍ فِي المَنَامِ مُضَاجِعُ

فَلِلنَّفسِ مِن جُلّاسِهَا كُلُّ نِسبَةٍ   وَمِن خُلَّةٍ لِلقَلبِ تِلكَ الطَبَائِعُ

وَلاَ تَنهَمِك فِي القَولِ أَو فِي سَمَاعِهِ   وَلَو أَنَّ فِيهِ مِن بَلاغٍ مُصَاقِعُ

فَكُلُّ حَدِيثٍ قِيلَ أَو سَنَقُولُهُ   عَنِ العَينِ فِي التَّحقِيقِ لِلعَينِ رَادِعُ

فَسِرُّ الهَوى عَن قَائِلِيهِ مُحَجَّبٌ   وَمَا القِيلُ لِلعُشَّاقِ وَالقَالُ نَافِعُ

وَرَمزُ الهَوى سِرٌّ وَمَدفَنُهُ الحَشَا   وَدُونَكَ وَالتَّصرِيحَ عَنهُ مَوَانِعُ

وَإِنِّي لِمَن فِي الحُبِّ يُهدى بِهَديِهِ   فَإِنَّكَ لا تَهدِي مَن أَحبَبتَ قَانِعُ

فَدَع عَنكَ دَعوى القَولِ فِي نُكتَةِ الهَوى   فَرَاحِلَةُ الأَلفَاظِ فِي السَّيرِ ضَالِعُ

وَسِر فِي الهَوى بِالرُّوحِ وَاصغِ إِلى الهَوا   لِتَسمَعَ مِنهُ سِرَّ مَا أَنتَ وَالِعُ

وَمِن دُونِ هَذَاكِ السَّمَاعِ مَهَالِكٌ   وَمَا كُلُّ أُذنٍ فِيهِ تِلكَ المَسَامِعُ

فَشَمِّر وَلُذ بِالأَولِيَاءِ فَإِنَّهُم   لَهُم مِن كِتَابِ الحَقِّ تِلكَ الوَقَائِعُ

هُمُ الذُّخرُ لِلمَلهوفِ وَالكَنزُ لِلرَّجا ... وَمِنهُم يَنالُ الصَّبُّ ما هُوَ طامِعُ

بِهِم يُهتَدى لِلعَينِ مَن ضَلَّ في العَمى ... لَهُم يُجذَبُ العُشّاقُ وَالرَّبعُ شاسِعُ

هُمُ القَصدُ وَالمَطلوبُ وَالسُّؤلُ وَالمُنى ... وَاسمُهُم لِلصَّبِّ في الحُبِّ شافِعُ

هُمُ النّاسُ فالزَم إِن عَرَفتَ طَرِيقَهُم ... فَفيهِم لِضُرِّ العالَمينَ مَنافِعُ

فَإِن جهِلوا فَانظُر بِحُسنِ عَقِيدَةٍ ... إِلى كُلِّ مَن تَلقاهُ بِالفَقرِ ضارِعُ

وَحافِظ مَواثِيقَ الإِرادَةِ قائِماً ... بِشَرعِ الهَوى إِن أَنتَ في الحُبِّ شارِعُ

وَداوِم عَلى شَرطَينِ ذِكرُ أَحِبَّةٍ ... وَتَسليكُ نَفسٍ لِلخِلافِ تُسارِعُ

فَلا تُهمِلَن ذِكرَ الأَحِبَّةِ لَمحَةً ... وَداوِم خِلافَ النَّفسِ فَهيَ تُتابِعُ

وَقُم وَاستَقِم في الحُبِّ لا تَخشَ ضَلَّةً ... فَمَيلُ الفَتى عَمّا يُحاوِلُ رادِعُ

وَإِن ساعَدَ المَقدورُ أَو ساقَكَ القَضا ... إِلى شَيخِ حَقٍّ في الحَقِيقَةِ بارِعُ

فَقُم في رِضاهُ وَاتَّبِع لِمُرادِهِ ... وَدَع كُلَّ ما مِن قَبلُ كُنتَ تُصانِعُ

وَكُن عِندَهُ كَالمَيتِ عِندَ مُغَسِّلٍ ... يُقَلِّبُهُ ما شاءَ وَهوَ مُطاوِعُ

وَلا تَعتَرِض فيما جَهِلتَ مِن أَمرِهِ ... عَلَيهِ فَإِنَّ الإِعتِراضَ تَنازُعُ

وَسَلِّم لَهُ مَهما تَراهُ وَلَو يَكُن ... عَلى غَيرِ مَشروعٍ فَثَمَّ مَخادِعُ

فَفي قِصَّةِ الخِضرِ الكَرِيمِ كِفايَةٌ ... بِقَتلِ الغُلامِ وَالكَليمُ يُدافِعُ

فَلَمّا أَضاءَ الصُّبحُ عَن لَيلِ سِرِّهِ ... وَسَلَّ حُساماً لِلمُحاجِجِ قاطِعُ

أَقامَ لَهُ العُذرَ الكَلِيمُ وَإِنَّهُ ... كَذَلِكَ عِلمُ القَومِ فيهِ بَدائِعُ

وَواظِب شُهودَ العِلمِ فيكَ فَإِنَّهُ ... هُوَ الحَقُّ وَالأَنوارُ فيكَ سَواطِعُ

وَرَقِّ مَقامَ القَلبِ مِن نَجمِ رَبِّهِ ... إِلى قَمَرِ الرَّحمَنِ إِذ هُوَ طالِعُ

إِلى شَمسِ تَحقيقِ الأُلوهَةِ رافِعاً ... إِلى ذاتِهِ لِلقَدرِ إِذ أَنتَ رافِعُ

فَلِلَّهِ خَلْفَ الاسمِ وَالوَصفِ مَظهَرٌ ... وَعَنهُ عُيونُ العالَمينَ هَواجِعُ

فَلَيسَ يُرى الرَّحمٰنُ إلّا بِعَينِهِ ... وَذَلِكَ حُكمٌ في الحَقيقَةِ واقِعُ

وَإيّاكَ لا تَستَبعِدِ الأمرَ إنَّهُ ... قَريبٌ عَلى مَن فيهِ لِلحَقِّ تابِعُ

وَها أنا ذا أُنبيكَ عَن سُبُلِ الهدى ... وَأُفصِحُ عَمّا قَد حَوَتهُ المَشارِعُ

أَقُصُّ حَديثاً تَمَّ لي مِن بِدايَتي ... لِنَحوِ انتِهائي عَلَّهُ لَكَ نافِعُ

بَرَزتُ مِنَ النورِ الإلٰهِيِّ لَمعَةً ... لِحِكمَةِ تَرتيبٍ قَضَتها البَدائِعُ

إلى سَقفِ عَرشِ اللّٰهِ في أُفُقِ العُلا ... وَمِنهُ إلى الكُرسِيِّ حَيثُ أُسارِعُ

إلى القَلَمِ الأعلى وَلي مِنهُ بَرزَةٌ ... إلى اللَّوحِ لَوحِ الأمرِ والحق واسِعُ

إلى الهَبا السامي وَقيلَ مُكَرَّماً ... نَزَلتَ الهيُولى وَهِيَ للخَلقِ جامِعُ

هُناكَ تَلَقَّتني العَناصِرُ حِكمَةً ... وَمِنها اجتَلَتني في حِماها الطَّبائِعُ

وَأنزَلَني المَقدُورُ مِن أوجِ أطلَسٍ ... إلى الفَلَكِ العالي الذُّرى وَهوَ تاسِعُ

وَمِنهُ هُبوطي لِلكَواكِبِ نازِلاً ... عَلى فَلَكٍ كيوانَ ثَمَّةَ سابِعُ

فَلَمّا نَزَلتُ المُشتَرى وَهوَ سادِسٌ ... سَماءٌ بِهِ لِلسَّعدِ في الكَونِ تابِعُ

أتَيتُ سَما بِهرامَ مِن بَعدِ هابِطاً ... عَلى فَلَكٍ لِلشَّمسِ وَالشَّمسُ رابِعُ

وَفي كُرَةِ الزُّهراءِ أعني سَماءَها ... حَثَثتُ مَطِيَّ السَّيرِ وَالدّارُ شاسِعُ

عَلى كاتِبِ الأفلاكِ وَهوَ عطارِدُ ... وَفَدتُ وَكانَت لي هُناكَ مَراتِعُ

وَبِالقَمَرِ الباهي نَزَلتُ وَشَرَّعَت ... عَلى الفَلَكِ الناري الأثيرِ شَرائِعُ

وَمِنهُ هَوى لِلأمرِ في فَلَكِ الهَوا ... رَكائِبُ عَزمٍ لَهُنَّ مَوانِعُ

وَبِالكُرَةِ المائِيَّةِ العَينِ إذ سَرَت ... أضافَت رِكابَ العَزمِ فيها البَلاقِعُ

فَهَذا نُزولُ الجِسمِ مِن عِندِ رَبِّهِ ... وَلِلروحِ تَنزيلٌ مَجازٌ مُتابِعُ

وَذَلِكَ أَنَّ الروحَ في المَركَزِ الَّذي لَها هِيَ روحُ الحَقِّ فَافهَم أَسامِعُ

فَلَيسَ لَها فيهِ هُبوطٌ مُنَزَّلٌ وَلَيسَ لَها مِنهُ صُعودٌ مُرافِعُ

وَلَكِنَّ في تَعيينِها بِمُخَصِّصٍ تَنَزُّلَ عَن حُكمٍ بِأَن هُوَ شائِعُ

وَذَلِكَ لِلأَرواحِ خَلقٌ حَقيقَةً وَذَلِكَ تَنزيلٌ لَها وَقَواطِعُ

فَفِي المَثَلِ المَشهورِ وَجهٌ تَنَوَّعَت سَرائِرُهُ حَتّى بَدا مُتَنَاوِعُ

فَيَبرُزُ فِي حُكمِ المِرآةِ لِلوَرى عَلى الجُرمِ وَالمِقدارِ إِذ ذاكَ طابِعُ

فَتَنويعُها ذاكَ التَّجَلّي هُوَ الَّذي تُسَمّيهِ روحاً وَهوَ بِالنَّفخِ واقِعُ

وَإِلّا فَلا اسمٌ لَهُ غَيرَ رَبِّنا وَلَيسَ لَهُ إِلّا الصِّفاتُ مَواضِعُ

تَنَزَّهَ رَبّي عَن حُلولٍ بِقُدسِهِ وَحاشاهُ ما بِالاتِّحادِ تُجامِعُ

فَمَهما تَحِلُّ الروحُ جِسماً فَإِنَّها لِتَصويرِ ذاكَ الجِسمِ في الصورِ تابِعُ

وَيَتبَعُها في نَصبِها وَارتِفاعِها وَتَتبَعُهُ إِن جَرَّ يَوماً طَبائِعُ

فَإِن قَوِيَت بِالتَّزكِياتِ رَقَت بِهِ إِلى المَركَزِ العالي الَّذي هُوَ رافِعُ

وَإِن ضَعُفَت وَاستَقوَتِ النَّفسُ وَالهوى تَكُن تَبَعاً لِلجِسمِ إِذ هُوَ تابِعُ

فَتَشقى بِهِ في سِجنِ طَبعٍ وَإِن رَقَت بِهِ كانَ مَسعوداً وَفي العِزِّ راتِعُ

وَإِنَّ نُزولَ الجِسمِ لِلخَلقِ في الثَّرى سَواءٌ وَلَكِن بَعدَ ذاكَ تُنازِعُ

فَمَن سَبَقَت لِلَّهِ فيهِ عِنايَةٌ فَغَيرُ مُكوثٍ في التُرابِ مُسارِعُ

وَمَن أَبعَدَتهُ السابِقاتُ فَإِنَّهُ لَهُ بَينَ نَبتٍ وَالتُّرابِ مَراجِعُ

فَقَد يَكُ عُشباً ثُمَّ تَرعاهُ دابَّةٌ وَيَترُبُ إِذ يَفنى وَيَخضَرُّ يانِعُ

عَلى قَدرِ تَكرارِ التَّرَدُّدِ بَعدَهُ لِنَسيَ عُهوداً بِالحِمى وَوَقائِعُ

وَعِندَ مُرورِ النَّفسِ في كُلِّ مَنزِلٍ سَيُنقَشُ فيها مِنهُ طَبعاً طَبائِعُ

فَتَظهَرُ نَفسُ المَرءِ كامِلَةَ البَها ... وَمِن نُسخَةِ الأكوانِ فيها خَلائِعُ

لِتَذكُرَ بِالمَشهودِ غائِبَ أمرِها ... فيَرجِعَ لِلأوطانِ مَن هُوَ راجِعُ

جَرى أشهبُ الألفاظِ في بَيانِها ... بِمِضمارِهِ حَتّى عَلَونَ مَنافِعُ

سَألوي عِنانَ القَولِ نَحوَ مَكانِهِ ... لِتَطلَّقَ فيهِ عَن قُيودِ شَرائِعُ

فَلَمّا نَزَلتُ الأرضَ ماءَ حَياتِها ... وَأثمَرَ لي أصلٌ هُنالِكَ يانِعُ

وَكانَ إذا أنبَت حَبُّ غُصونِها ... أرُزًّا فَصَدِّق أنَّني لَمُطالِعُ

وَساقَ القَضا تِلكَ الحُبوبَ فَغُذِّيا ... بِها أبَوايَ الأطهَرانِ جَوامِعُ

وَحَلَّ مِزاجُ الحَبِّ في الجِسمِ مادةً ... وَتَمَّت لِكَيموسَ دَامٍ وَبَخائِعُ

فَلَمّا دَنا آنُ البُروزِ تَجامَعا ... بِعَقدِ حَلالٍ نِعمَ ذاكَ التَّجامُعُ

وَلَمّا تَلاقى مِنهُ ماءٌ بِمائِها ... وَأبدَعَ بِالتَّرتيبِ نَشوِيَ بادِعٌ

وَكانَ اقتِضاءُ النَّشوءِ أنِّيَ روحُهُ ... وَتَعبيرُ نَفخِ الروحِ عَن ذاكَ واقِعُ

فَصَوَّرَ شَخصي بِاليَدَينِ مُصَوِّري ... لِيَطبَعَ لِلضِّدَّينِ فِيَّ طَوابِعُ

وَأخرَجَني مِن بَعدِ تَكميلِ هَيكَلي ... إلى العالَمِ الأرضِيِّ مَن هُوَ صانِعُ

فَفي أوَّلِ الشَّهرِ الحَرامِ مُحَرَّمٌ ... ظُهوري وَبِالسَّعدِ العطارِدِ طالِعُ

لِسِتّينَ مع سَبعٍ إلى سُبعُمائَةٍ ... مِنَ الهِجرَةِ الغَرّا سَقَتني المَراضِعُ

وَمُذ كُنتُ طِفلاً فَالمَعالي تَطَلُّبي ... وَتَأنَفُ نَفسي كُلَّ ما هُوَ واضِعُ

وَلي هِمَّةٌ كانَت وَها هِيَ لَم تَزَل ... عَلى أن لَها فَوقَ الطِباقِ مَواضِعُ

وَقَد كُنتُ جَمّاحاً إلى كُلِّ هَيئَةٍ ... فَخُضتُ بِحاراً دونَهُنَّ فَجائِعُ

وَكُلُّ الأماني نِلتُها وَهِيَ إن عَلَت ... بِها بَعدَ نَيلِ القَصدِ ما أنا قانِعُ

إلى أن أتَتني مِن قَديمِ عِنايَةٍ ... أيادٍ لَها مُذ كُنتُ عِندي صَنائِعُ

وَهَبَّ نَسيمُ الجودِ مِن أيمَنِ الحِما ... وَصُبَّ سَحابٌ بِالتَّعَطُّفِ هامِعُ

وَأحيا الحَيا أرضَ الفُؤادِ فَأعشَبَت ... وَغَنَّت عَلى عودِ الوِصالِ سَواجِعُ

فَهِمتُ مِنَ المَغنى مَعاني أحِبَّتي ... فَهِمتُ مُعَنًّى بِالصَّبابَةِ والِعُ

وَلاحَظتُ في فِعلي قَضاءَ مُرادِها ... وَأبصَرت صُنعي أنَّها هِيَ صانِعُ

أتَيتُ إلَيها راغِباً في مُرادِها ... وَما لِيَ في شَيءٍ سِواها مَطامِعُ

وَفَرَّغتُ مَشغولَ الفُؤادِ عَنِ السِّوى ... فَما أنَا في غَيرِ الحَبيبِ مُطالِعُ

فَلَمّا أضاءَت في الحَشا جَذوَةُ الهَوى ... وَأومَضَ مِن سَفحِ المَحَبَّةِ لامِعُ

سَقاني الهَوى كَأسَ الغَرامِ وَلَم يَكُن ... عَلى ساحَةِ الوِجدانِ بِالكَرمِ مانِعُ

فَقاطَعتُ نِدماني وَواصَلتُ لَوعَتي ... وَهاجَرتُ أوطاني فَبانَت مَرابِعُ

تَرَكتُ لَها الأسبابَ شُغلاً بِحُبِّها ... وَوَجداً بِنارٍ قَد حَوَتها الأضالِعُ

وَأشغَلَني شُغلي بِها عَن شَواغِلي ... وَفيها فَإنّي لِلعِذارِ مُخالِعُ

خَلَعتُ عِذاري في الهَوى وَزَهِدتُ في ... مَكاني وَإمكاني وَما أنا جامِعُ

وَألقَيتُ إنساني فَألفَيتُ مُنيَتي ... وَجافَيتُ نَومي بَل جَفَتني المَضاجِعُ

وَسَلَّمتُ نَفسي لِلصَّبابَةِ راضِياً ... بِحُكمِ الهَوى تَحتَ المَذَلَّةِ خاضِعُ

وَفَوَّضتُ أمري في هَواها تَوَكُّلاً ... لِيَقطَعَ في حُكمِي بِما هُوَ قاطِعُ

وَأنزَلَني مِن أوجِ عِزّي ذِلَّةً ... فَلي بَعدَ رَفعِ الإقتِدارِ تَواضُعُ

غَنِيتُ فَأغنانِي غِنايَ بِحُبِّها ... وَعِندِي افتِقاراً نَحوَها وَضَرائِعُ

طَرَحتُ عَلى أرضِ الهَوانِ رِياسَتي ... لَها نَعَمْ طَرحاً لِقَدرِيَ رافِعُ

لَبِستُ لِباسَ الوَجدِ فيها خَلاعَةً ... لِباسَ الهَوى في الحُبِّ ما أنا خالِعُ

وَمُذ أودَعَتني تُربَةُ الذُّلِّ وَالشَّقا ... فَروحي وَرَوحي راحِلٌ وَمُوادِعُ

وَلِي فِي هَواهَا هَتكَةٌ وَتَبَدُّدٌ عَلى أَنَّهُ لِي مِن نَواهَا مَصارِعُ
جَعَلتُ افتِقَارِي في الغَرامِ وَسيلَتِي وَيا ضَعفَ مَشغوفٍ لَهُ الفَقرُ شافِعُ
وَجِئتُ إِلَيها راغِباً لا مَثوبَةً وَلَكِن لَها مُنَّى إِلَيها أُسارِعُ
سَكَنتُ الفَلا مُستَوحِشاً مِن أَنيسِها وَمُستَأنِساً بالوَحشِ وَهيَ رَواتِعُ
أَنوحُ فَيُسجيني حَمامٌ سَواجِعُ وَأَبكي فَيُحكيني غَمامٌ هوامِعُ
وَلِي أَن عَوى ذِئبٌ عَلى فَقدِ إِلفِهِ زَفيرٌ لَهُ في الخافِقَينِ صَدائِعُ
وَإِن غَرَّدَت قُمرِيَّةٌ فَوقَ أَيكَةٍ تُجاوِبُ قُمرِيًّا عَلى البابِ ساجِعُ
فَإِنَّ لِأَنّاتي وَتأويهِ لَوعَتي بِتِلكَ الفَيافي في الظَّلامِ تَراجُعُ
وَبِي مِن مَريضِ الجَفنِ سُقمٌ مُبَرِّحٌ وَلي مِن عَصِيِّ القَلبِ دَمعٌ مُطاوِعُ
نَحِلتُ مِنَ الآلامِ حَتّى كَأَنَّني مُقَدَّرٌ مَفروضٌ وَما هُوَ واقِعُ
فَجِسمي وَأَسقامي مُحالٌ وَواجِبٌ وَدَمعي وَخَدّي أَحمَرٌ وَفَواقِعُ
فَلَو نَقَطَ الخَطّاطُ حَرفاً لِهَيكَلي عَلى سَطحِ لَوحٍ ما رَآهُ مُطالِعُ
أُسائِلُ مَن لاقَيتُ وَالدَمعُ سائِلٌ عَنِ الجِزعِ وَالسُّكّانِ وَالقَلبُ جازِعُ
تَحارَبَ جَفني وَالكَرى فَتَفانَيا وَسالَمَ قَلبي الحُزنَ فَهوَ مُبايِعُ
وَقَد قُيِّدَت بِالنَّجمِ أَهدابُ مُقلَتي كَما أُطلِقَت عَن قَيدِهِنَّ المَدامِعُ
وَأَسقَطَ قَدري في الوَرى شِنعَةُ الهَوى وَعِندِي أَنَّ العِزَّ تِلكَ الشَّنائِعُ
وَكَم مَرَّ بي مَن كُنتُ أَرفَعُ قَدرَهُ كَأَنّي لَهُ مِن بَعدِ ذَلِكَ واضِعُ
وَيَنكُفُ إِن أَلقاهُ بي مُتَطَيِّراً وَما هُوَ إِن حَدَّثتهُ لِيَ سامِعُ
فَما لِيَ في الأَحياءِ ما عِشتُ صاحِبٌ وَما لِي حَقًّا لَو أَموتُ مُشايِعُ
وَما لِيَ إِن حَدَّثتُهُم مِن مُجاوِبٍ وَلا إِن دَهاني الخَطبُ فيهِم مُدافِعُ

كَأنْ لَم أكُن في الحَيِّ أرفَعَ أهلِه ... مَكاناً وَقَدري في المَكانَةِ مانِعُ

ذَلَلتُ إلى أن خِلتُ أنّي لَم أزَل ... أذَلَّهُم قَدراً فَها أنا خاضِعُ

وَأحسَبُ أنَّ الأرضَ تَنكُفُ أن تَرى ... وَلي في ثَراها مَذهَبٌ وَمَشارِعُ

رَعى اللَّهُ أحزاناً رَعَينَ مَوَدَّتي ... فَهُنَّ لِقَلبي حَيثُ كُنتُ تَوابِعُ

نَعَم وَسَقى وَجداً مَدى الدَّهرِ مُؤنِسي ... فَكَم لَكَ يا دهري عَلَيَّ صَنائِعُ

وَيا زَفَراتي اصعَدي وَتَنَفَّسي ... فَقَد هَمَلت مِن فَيضِ جَفني المدامِعُ

وَيا كَبِدي في الحُبِّ ذوبي صَبابَةً ... وَيا كَمَدي دُم إنَّني بِكَ يائِعُ

وَيا جَسَدي هَل فيكَ مِن رَمَقٍ فَما ... أراكَ سِوى بِالوَهمِ عَبدٌ مُطاوِعُ

وَيا مُهجَتي وَالرَّسمُ مِنّي دارِسٌ ... وَيا طَلَلَ الأحشاءِ فَجعُكَ صارِعُ

وَيا جَفنِيَ المَقروحَ قَد فَنِيَ الدِّما ... وَيا قَلبِيَ المَجروحِ هَل أنتَ قارِعُ

وَيا ذاتِيَ المَعدومَ هَل لَكَ بَعثَةٌ ... وَيا صَبرِيَ المَهزومَ هَل أنتَ راجِعُ

وَيا خَفَقانَ القَلبِ زِدني كَآبَةً ... وَيا نارَ أحشايَ حَنينَ الأضالِعُ

وَيا نَفسِيَ الحَرّاءُ موتي تَلَهُّفاً ... فَما لَكِ في دينِ المَحَبَّةِ شافِعُ

ويَا روحِيَ المَتعوبَ صَبراً عَلى البَلا ... وَيا عَقلِيَ المسلوبَ هل أنتَ والِعُ

ويَا ما بَقي في الوَهمِ مِنّي وُجودُهُ ... عَدِمتُكَ شَيئاً وَقعُهُ مُتَمانِعُ

وَيا مُسقِمي زِدني أسىً وَتَبَدُّداً ... فَلَيسَ لِضُرّي غَيرَ سُقمِي نافِعُ

وَيَا عاذِلي كَرِّر فَإنّي وَإن أكُن ... إلى العَذلِ لا أُصغي فَلِلذِّكرِ سامِعُ

وَيا قاضِياً في الحُبِّ يُقضى بِعَدلِهِ ... تَحَكَّم بِجَورٍ إنَّني لَكَ طائِعُ

جَعَلت وُجودِي فانِياً في بَقائِها ... ألا فَاقضِ ما تَقضي فَما أنا جازِعُ

وَحَقَّقتُ أنّي في وُجودِيَ قائِماً ... بِها وَوُجودي مَكرهٌ وَخَدائِعُ

فَمِن مِصرَ أرضي قَد خَرَجتُ لِمَديَنٍ ... لَعَلَّ شُعَيبَ القَلبِ فيه صَدائِعُ

فَأَلفَيتُ بِنتي عادَتي وَطَبائِعي ... تَذودانِ أغنامي وَمائِيَ نابِعُ

سَقَيتُ مِنَ الماءِ اليَقينِ غَنائِمي ... وَمِن رَعيِ زَهرِ العِلمِ هُنَّ شَوابِعُ

وَجاءَت عَلى استِحياءِ ذاتي لِرَبِّها ... بِتَوحيدِها إحداهُما وَهيَ تُسارِعُ

فَلَمّا تَزَوَّجتُ الحَقيقَةَ صُنتُها ... وَأَمهَرتُها بِالروحِ تِلكَ الشَّرائِعُ

صَعَدتُ مَعالي طورِ قَلبي مُناجِياً ... لِرَبّي حَتّى أن بَدَت لي لَوامِعُ

وَخَلَّفتُ أهلي وَهيَ نَفسي تَرَكتُها ... وَجِئتُ إلى النورِ الَّذي هُوَ ساطِعُ

فَنادانِيَ التَّوحيدُ نَعليكَ دَعهُما ... فَها أنا ذا لِلروحِ وَالجِسمِ خالِعُ

وَكَلَّمَني التَّحقيقُ مِن شَجَرِ الحَشا ... بِأَنّي بِالوادي المُقَدَّسِ راتِعُ

فَسِرتُ بِعَقلي مَع فَتايَ وَحوتِهِ ... إلى مَجمَعِ البَحرَينِ وَالعَقلُ تابِعُ

هُناكَ نَسيتُ الحوتَ وَهوَ أُنَيتَي ... فَسَبَّحَ في بَحرِ الحَقيقَةِ شارِعُ

عَلى إثرِيَ ارتَدَّيتُ حَتّى لَقيتُ مَن ... هُوَ الأصلُ إذ نَقشٌ أنا وَهُوَ طابِعُ

فَلَمّا تَعارَفنا وَلَم يَبقَ نُكرَةٌ ... طَلَبتُ اتِّباعاً كَي يَفوزَ مُتابِعُ

فَأَغرَقَ في بَحرِ الإلٰهِ سَفينَتي ... وَخَرَّ غُلامُ الشِّركِ إذ هُوَ جازِعُ

وَجُزنا بِلادَ اللّٰهِ قَريَةَ غُربَةٍ ... وَفيها لِقَلبي مُنحَنًى وَأَجارِعُ

أرَدنا ضِيافاتٍ أبَوا أن يُضَيِّفوا ... لِتَسَدَّلَ في وَجهِ البُدورِ بَراقِعُ

هُنَاكَ جِدارُ الشَّرعِ خِضري أقامَهُ ... لِئَلّا تُرى بِالعَينِ تِلكَ الشَّرائِعُ

فَإن فَهِمَت أحشاكَ ما قُلتُ مُجمَلاً ... وَإلّا فَبِالتَّفصيلِ ها أنا صادِعُ

رَأَيتُ قِيامي راجِعاً نَحوَ رَبِّهِ ... تَقَهقَرَ مِنّي لِلحَبيبِ مَراجِعُ

فَعايَنتُ أنّي كُنتُ في العِلمِ ثابِتاً ... وَلِلحَقِّ عِلمُ الحَقِّ في الحُكمِ تابِعُ

وَبِالعِلمِ فَالمَعلومُ أيضاً مُحَقَّقٌ وَلَيسَ لِهَذا الحُكمِ في العَقلِ رادِعُ

فَحِينَئذٍ حَقَّقتُ أنّي نَفخَةٌ مِنَ الطيبِ طيبِ اللّهِ في الخَلقِ ضايِعُ

وَمَا النَّشرُ غَيرُ المِسكِ فَافهَم إشارَتي وَيُغنيكَ فَالتَّصريحُ لِلسِّرِّ ذائِعُ

فلاحَظتُ في فِعلي قَضاءَ مُرادِها وَأبصَرتُ صُنعي أنّها هِيَ صانِعُ

تُحَرِّكُني مَستورَةً بَأَنِّيتي وَما سِترُها إلّا لِما فِيَّ مانِعُ

فَسَلَّمتُ نَفسي حَيثُ أسلَمَني القَضا وَما لِيَ مَع فِعلِ الحَبيبِ تَنازُعُ

فَطَوراً تَراني في المَساجِدِ عاكِفاً وَأنّي طَوراً في الكَنائِسِ راتِعُ

أراني كَالآلاتِ وَهوَ مُحَرِّكي أنا قَلَمٌ وَالاقتِدارُ أصابِعُ

وَلَستُ بِجَبرِيٍّ وَلَكِن مُشاهِدٌ فِعالُ مُريدٍ ما لَهُ مَن يُدافِعُ

فَآونَةً يَقضي عَلَيَّ بِطاعَةٍ وَحيناً بِما عَنهُ نَهَتنا الشَّرائِعُ

لِذاكَ تَراني كُنتُ أترُكُ أمرَهُ وَآتي الَّذي يَنهاهُ وَالجَفنُ دامِعُ

وَلي نُكتَةٌ غَرّا هُنا سَأقولُها وَحُقَّ لَها أن تَرعَويها المَسامِعُ

هِيَ الفَرقُ مَا بَينَ الوَلِيِّ وَفاسِقٍ تَنَبَّه لَها فَالأمرُ فيهِ بَدائِعُ

فَما هُوَ إلّا أنّهُ قَبلَ وَقعِهِ يُخَبِّرُ قَلبي بِالَّذي هُوَ واقِعُ

فَأجني الَّذي يَقضيهِ فِيَّ مُرادُها وَعَيني لَها قَبلَ الفِعالِ تُطالِعُ

وَكُنتُ أرى مِنها الإرادَةَ قَبلَ ما أرى الفِعلَ مِنّي وَالأسيرُ مُطاوِعُ

فَآتي الَّذي تَهواهُ مِنّي وَمُهجَتي لِذَلِكَ في نارٍ حَوَتها الأضالِعُ

فَإن كُنتُ في حُكمِ الشَّريعَةِ عاصِياً فَإنّي في عِلمِ الحَقيقَةِ طائِعُ

وَكَم رَكِبَت نَفسي مِنَ الهَولِ مَركَباً فَيا دَرَّها لِلّهِ كَيفَ تُصارِعُ

فَكانَت إذا هالَها الأمرُ وَعايَنَت إرادَةَ مَن تَهوى أتَتهُ تُسارِعُ

وَكَم جَرَّدُوا لِلحَربِ فَاستَهلَّت بَما أرادَ حَبِيبِي فَارتَدَتها الوَقائِعُ

وَكَم داسَها نَعلٌ عَلى أُمِّ رَأسِها فَلَمّا تَوَلَّت أَقبَلَت وَهيَ خاضِعُ

وَكَم كانَ صَدري لِلنِّبالِ عَرِيضَةً وَعِرضي لِسَهمِ الطاعنينَ مَواقِعُ

وَكَم كُنتُ أَيضاً لِلمُرادِ مُجَرِّداً مِنَ الغِمدِ سَيفاً بِالدِّما وَهوَ ناقِعُ

وَكَم هِجتُ ناراً لِلوَغى بَينَ أَضلُعي وَبَيني وَبَينَ الغَيرِ وَالأَمرُ شائِعُ

وَكَم قَبَّلَت رِجلي فَمٌ فَضَرَبتُهُ بِها عامِداً إِضرارَهُ وَمُقاطِعُ

وَكُلُّ الَّذي آتيهِ آتيهِ ناظِراً لِمَشيئَةٍ في اللَّوحِ أَنّي تابِعُ

فَلَمّا مَضى لَيلي وَوَلَّت نُجومُهُ وَأَشرَقَ شَمسي في الأُلوهَةِ ساطِعُ

سُلِبتُ إِرادَتي وَحَولي وَقُوَّتي وَكُلُّ وُجودي وَالحَيا وَالمَجامِعُ

فَنيتُ بِها عَنّي فَما لي أَنِيَّةٌ هَوِيَّةُ لَيلى لِلأَنِيّاتِ قامِعُ

وَكُنتُ كَما أَن لَم أَكُن وَهوَ أَنَّهُ كَما لَم يَزَل فَرداً وَلِلكُلِّ جامِعُ

وَغُيِّبتُ عَن تِلكَ المَشاهِدِ كُلِّها وَعَنّي وَعَن غَيبوبَتي أَنا زامِعُ

فَلا أَنا إِن حَدَّثتُ يَوماً مُخاطِبٌ وَإِن أَسمَعوني القَولَ ما أَنا سامِعُ

وَلا أَنا إِن كَلَّمتُهُم مُتَكَلِّمٌ وَلا أَنا إِن نازَعوني مُنازِعُ

فَلَمّا فَنى مِنّي وُجودُ هَوِيَّتي وَباعَ البَقا بِالمَوتِ مَن هُوَ بائِعُ

حَبَتني فَكانَت فِيَّ عَينَ نِيابَةٍ أَجَل عِوَضاً بَل عَينُ ما أَنا واقِعُ

فَكُنتُ أَنا هِيَ وَهِيَ كانَت أَنا وَما لَها مِن وُجودٍ مُفرَدٍ مَن يُنازِعُ

بَقيتُ بِها فيها وَلا تاهَ بَينَنا وَحالي بِها ماضٍ كَذا وَمُضارِعُ

وَلَكِن رفعت النَّفسَ فَارتَفَعَ الحِجا وَنُبِّهتُ مِن نَومي فَما أَنا ضاجِعُ

وَشاهَدتُني حَقّاً بِعَينِ حَقيقَتي فَلي في جَبينِ الحُسنِ تِلكَ الطَّلائِعُ

جَلَوتُ جَمالي فَاجتلَيتُ مِرآتي ... لِيُطبَعَ فيها لِلكَمالِ مَطابِعُ

فَأوصافُها وَصفي وَذاتِي ذاتُها ... وَأخلاقُها لي في الجَمالِ مَطالِعُ

وَاسمِيَ حَقًّا اسمُها وَاسمُ ذاتِها ... لِيَ اسمٌ وَلي تِلكَ النُعوتُ تَوابِعُ

فَشَمسِي في أُفقِ الألوهَةِ مُشرِقٌ ... وَبَدرِيَ في شَرقِ الرُبوبَةِ طالِعُ

وَنَفسِيَ بِالتَّحقيقِ يا صاحِ نَفسُها ... وَلَيسَ لتوحيدي مِنَ الشِّركِ رادِعُ

فَمَن نَظَرَتها عَينُهُ فَهوَ نَاظِري ... وَتُبصِرُها عَينٌ إلى تُطالِعُ

وَيَحمَدُها بِالشُكرِ مَن هُوَ حامِدي ... وَيُثني بِحَمدي مَن لَهُ الحَمدُ رافِعُ

وَيَعبُدُني بِالذَّاتِ عابِدُها كَما ... لَها خَضَعَت أحشاءُ مَن لِيَ خاضِعُ

تُجيبُ إذا نادَيتَ بِاسمِي وَإنَّنِي ... مُجيبٌ إذا نادَيتَها لَكَ فازِعُ

وَقَد مُحِيَت أوصافُنا في ذَواتِنا ... كَما فَنِيَت مِنّي نُعوتٌ ضَرايِعُ

فَأفنَيتُها حَتّى فَنيتُ وَلَم تَكُن ... وَلَكِنَّني بِالوَهمِ كُنتُ أطالِعُ

كَذا الخَلقُ فَافهَم إنَّهُ مُتَوَهَّمٌ ... وَهَذا كَقِشرٍ كَي يَصِلَّ مُخادِعُ

وَهَا هِيَ ما كانَت سِوى مَخزَنٍ وَلي ... هُناكَ مِنَ الحُسنِ البَديعِ وَدائِعُ

فَلَمَّا قَبَضتُ الإرثَ مِن مَخزَنِ الهَوى ... تَناقَضَ عَن جُدرانِهِ فَهوَ واقِعُ

فَكانَت كَعَنقا مَغرِبٍ وَصَفَةٌ وَما ... حَوَت غَيرَ ذاكَ الوَصفِ مِنها البَقائِعُ

هِيَ الذاتُ طاحَت إن فَهِمتَ إشارَتي ... نَجَوتَ وَإلّا فَالجَهالَةُ خادِعُ

وَهاكَ حَديثَ المُنحَنا غَيرَ أنَّهُ ... عَلى الوَردِ مِن قِشرِ الكَمامِ قَمائِعُ

غَزالٌ لَهُ عَينانِ بِالسِّحرِ كُحِّلا ... فَواحِدَةٌ فَقعا وَأُخرى فَواقِعُ

كَثَوبٍ لَهُ طولٌ وَلَكِنَّ لَونَهُ ... حَكى وَرَقَ الرَيحانِ أخضَرُ يانِعُ

فَما الطولُ إلّا الثَوبُ وَاللَّونُ عَينُهُ ... إذِ الحُكمُ في المَحكومِ لِلأمرِ تابِعُ

وَما الثَّوبُ طولاً لا وَلا اللَّوثُ ذاتُهُ ... وَما ثَمَّ إلّا الثَّوبُ تِلكَ المَجامِعُ

زَرَعتُ لَكَ المَعنى بِلَفظِيَ فاجنِ ما ... مَنَحتُكَ مِن أثمارِ ما أنا زارِعُ

فَإنّي لَمّا أن تَبَدَّت هُوِيَّتي ... خَفيتُ وَإن تَغرُب فَإنِّيَ طالِعُ

وَلَيسَت سِوايَ لا وَلا كُنتُ غيرَها ... وَمِن بَينِنا تاءُ التَّكَلُّمِ ضائِعُ

فَإنّي إيّاها بِغَيرِ تَساؤُلٍ ... كَما أنَّها إيّايَ وَالحَقُّ واسِعُ

فَكُلُّ عَجيبٍ من جَمالِيَ شاهِدٌ ... وَكُلُّ غَريبٍ مِن كَمالِيَ شائِعُ

وَكُلُّ الوَرى طُرًّا مَظاهِرُ طَلعَتي ... مراءٍ بِها مِن حُسنِ وَجهِيَ لامِعُ

ظَهَرتُ بِأوصافِ البَرِيَّةِ كُلِّها ... أجَل في ذواتِ الكُلِّ نوريَ ساطِعُ

تَخَلَّفتُ بِالتَّحقِيقِ في كُلِّ صورَةٍ ... فَفِي كُلِّ شَيءٍ مِن جَمالي لَوامِعُ

فَما الكَونُ في التِّمثالِ إلّا كَدِحيَةٍ ... تَصَوَّرُ روحي فيهِ شكلٌ مُخادِعُ

فَصِفني بِأوصافِ البَرِيَّةِ جَمعِها ... فَإنّي لِدنياكَ المَحاسِنِ جامِعُ

وَعَن كُلِّ تَشبيهٍ فَإنّي مُنَزَّهٌ ... وَفي كُلِّ تَنزِيهٍ فَإنّي مُضارِعُ

وَجِسمِيَ لِلأرواحِ روحٌ مُدَبِّرٌ ... وَفي ذَرَّةٍ مِنهُ الأنامُ جَوامِعُ

وَلَو لَم يَكُن في الحُسنِ مِنّي لَطيفَةٌ ... لَما كانَتِ الأجفانُ فِيَّ تُطالِعُ

وَلَولا لِذاتي في الكَمالِ مَحاسِنٌ ... تَلوحُ لَما مالَت إلَيها الطَّبائِعُ

فَهَيكَلُ شَخصي كُلُّ فَرد بَسيطَةٍ ... لِجَوهَرِ أنواعِ المَحاسِنِ جامِعُ

وَإنّي عَلى تَنزِيهِ رَبّي لَقائِلٌ ... بِأوصافِهِ عَنّي فَحَقِّيَ صادِعُ

أنا الحَقُّ وَالتَّحقيقُ جامِعُ خَلقِهِ ... أنا الذاتُ وَالوَصفُ الَّذي هُوَ تابِعُ

فَأحوي بِذاتِي ما عَلِمتُ حَقيقَةً ... وَنوري فيما قَد أضاءَ فَلامِعُ

وَيَسمَعُ تَسبيحُ الصَّوامِتِ مَسمَعي ... وَإنّي لأسرارِ الصُّدورِ أطالِعُ

وَأعلَمُ ما قَدْ كانَ في زَمَنٍ مَضى ... وحَالاً وَأدري ما أراهُ مُضارِعُ

وَلَو خَطَرَت في أسوَدِ اللَّيلِ نَملَةٌ ... عَلى صَخرَةٍ صَمّا فَإنّي مُطالِعُ

أعِدُّ الثَّرى رَملاً مَثاقيلَ ذَرَّةٍ ... وَأحصي غَزيرَ القَطرِ وَهي هَوامِعُ

وَأحكُمُ مَوجَ البَحرِ وَسطَ خِضَمِّهِ ... عِياراً وَمِقداراً كَما هُوَ واقِعُ

وَأنظُرُ تَحقيقاً بِعَيني مُحَقِّقاً ... قُصورَ جِنَانِ الخُلدِ وَهي قَلائِعُ

وَأتقِنُ عِلماً بِالإحاطَةِ جُملَةً ... لِأوراقِ أشجارٍ هُناكَ أيانِعُ

وَكُلُّ طِباقٍ في الجَحيمِ عَرَفتُها ... وَأعرِفُ أهلِيها وَمن ثَمَّ واضِعُ

وَأنواعُ تَعذيبٍ هُناكَ عَلِمتُها ... وَأهوالِها طُرًّا وَهُنَّ فَظائِعُ

وَأملاكها حَقًّا عَرَفتُ وَلَم يَكُن ... عَلَيَّ بِخافٍ ما لَهُ أنا صانِعُ

وَكُلُّ عَذابٍ ذُقتُ ثُمَّ وَلَم أُبَل ... أأخشى وَإنّي لِلمَقامَينِ جامِعُ

وَكُلُّ نَعيمٍ إنَّني لَمُنَعَّمٌ ... بِهِ وَهوَ لي مِلكٌ وَما ثَمَّ رادِعُ

وَكُلُّ عَليمٍ في البَرِيَّةِ إنَّهُ ... لَقَطرَةُ ماءٍ مِن بِحارِيَ دافِعُ

وَكُلُّ حَكيمٍ كانَ أو هُوَ كائِنٌ ... فَمِن نُورِيَ الوَضّاحِ في الخَلقِ لامِعُ

وَكُلُّ عَزيزٍ بِالتَّجَبُّرِ قاهِرٌ ... بِبَطشِ اقتِدَارِي لِلبَرِيَّةِ قامِعُ

وَكُلُّ هُدًى في العالَمينَ فَإنَّهُ ... هُدايَ وَما لي في الوُجودِ مُنازِعُ

أُصَوِّرُ مَهما شِئتُ مِن عَدَمٍ كَما ... أُقَدِّرُ مَهما شِئتُ وَهوَ مُطاوِعُ

وَأُفني إذا شِئتُ الأنامَ بِلَمحَةٍ ... وَأُحيِي بِلَفظٍ ما حَوَتهُ البَلاقِعُ

وَأجمَعُ ذَرّاتِ الجُسومِ مِنَ الثَّرى ... وَأُنشي كَما كانَت وَإنّي بادِعُ

وَفي البَحرِ لَو نادى بِاسمِي حُوتُها ... أجَبتُ وَإنّي لِلمُناجِينَ سامِعُ

وَفي البَرِّ لَو هَبَّ الرِّياحُ عَلى الثَّرى ... أُحيطُ وَأُحصي ما حَوَتهُ البَقائِعُ

وَخَلْفَ مَعالي قافَ لَو يَستَغيثُ بِي مُـغـاثٌ فَـإنِّـي ثَـمَّ لِـلـضُّـرِّ دافِـعُ
وَأَقلِبُ أعيانَ الجِبالِ فَلَو أَقُل لَهـا ذَهَـباً كـوني فَـهُـنَّ فَـواقِـعُ
وَأُجرِيَ إن شِئتُ السُّفايِنَ في الثَّرى وَفي البَحرِ لَو أبغي المَطِيُّ تُسارِعُ
وَإنَّ الطِّباقَ السَّبعَ تَحتَ قَوائِمي وَرِجلي عَلى الكُرسِيِّ ثَمَّةَ رافِعُ
وَبَيتي سَقفُ العَرشِ حاشايَ لَيسَ لي مَكانٌ وَمِن فَيضي خُلِقنَ المواضِعُ
وَأُجري عَلى لَوحِ المَقادِيرِ ما أشا وَبِالقَلَمِ الأعلى فَكَفِّيَ بارِعُ
فَسِدرَةُ أوجِ المُنتَهى لِيَ مَوطِن وَغايَتُهُ غاياتِ الكَمالِ مَشارِعُ
وَكُلُّ مَعاشِ الخَلقِ تُجرِيهِ راحَتي لِراحَتِهِم جُوداً وَلَستُ أُصانِعُ
وَفي كُلِّ جُزءٍ مِن تَراكيبِ هَيكَلي لِوُسعِي فَالكُرسِيُّ وَالعَرشُ ضائِعُ
وَلا فَلَكٌ إلّا وَتُجرِيهِ قُدرَتي وَلا مَلِكٌ إلّا لِحُكمِيَ طائِعُ
وَأمحُو لِما قَد كانَ في اللَّوحِ مُثبتاً وَتَثبُتُ إذا وَقَّعتُ ثَمَّ وَقائِعُ
وَإنّي عَلى هَذا عَنِ الكُلِّ فارِغٌ وَلَيسَ بِهِ لي هِمَّةٌ وَتَنازُعُ
وَوَصفِيَ حَقًّا فَوقَ ما قَد وَصَفتُهُ وَحَشايَ مِن حَصرٍ وَما لي قاطِعُ
وَإنّي عَلى مِقدارِ فَهمِكَ واصِفٌ وَإلّا فَلي مِن بَعدِ ذاكَ بَدائِعُ
وَثَمَّ أُمورٌ لَيسَ يُمكِنُ كَشفُها لَها قَلَّدَتني عَقدَهُنَّ شَرائِعُ
قَفَوتُ بِها آثارَ أحمَدَ تابِعاً فَأعجَب لِمَتبوعٍ وَما هُوَ تابِعُ
نَبِيٌّ لَهُ فَوقَ المَكانَةِ رُتبَةٌ وَمِن عَينِهِ لِلنّاهِلينَ مَنابِعُ
عَلَيهِ سَلامُ اللهِ مِنّي وَإنَّما سَلامي عَلى نَفسي النَّفيسَةِ واقِعُ
كَذا الآلِ وَالأصحابِ ما ذَرَّ شارِقٌ وَما ناحَ قُمرِيٌّ عَلى البابِ ساجِعُ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الإعانة بدا وختماً

الحمد لله الذي شرح صدر المؤمنين بأنوار التوفيق ويسر أمور الموحدين إلى سلوك سبيل التحقيق والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي هدى الأمة إلى أقوم طريق ورضوان الله تعالى عن أصحابه وتابعيه وأنصاره وأحزابه أهل الجمع والتفريق.

أما بعد، فيقول أحقر الأنام الراجي من الله تعالى حسن الختام عبد الغني الشهير بالنابلسي الحنفي الدمشقي القادري لطف الله تعالى به وبإخوانه المسلمين في كل حين.

هذا شرح لطيف وضعته بالعجل على قصيدة بحر الحقائق الإلٰهية، وترجمان الحضرة الربانية العارف الكامل المشمول بعناية ربه، وهو لغيره بالإرشاد شامل الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس الله روحه ونور ضريحه، وهي قصيدته العينية المعروفة التي هي الدرة المكنونة والجوهرة المصونة ولم أقف لها على شرح لأحد من الناس يبيّن مشكلاتها ويفصل مجملاتها فطلب مني ذلك بعض الإخوان والله الموفق وعليه التكلان وبه يستعان وسميته: «المعارف الغيبية في شرح العينية الجيلية» والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال رضي الله عنه:

فؤادٌ به شمسُ المحبة طالِعُ ... وليس لنجم العذل فيه مواقع

يعني (فؤاد شمس المحبة) الإلٰهية طالعة فيه فنجوم الملامة من الأغيار لا

تظهر فيه لأن الشمس إذا طلعت لا يبقى للنجوم ظهور ومراده بشمس المحبة رتبة الحق الوارد في الكتاب والسّنة وهي أوصافه الحسنى لا كنه ذاته لأنها واجبة لا وجود للمكن معها فلا ظهور لها فيه إلا من حيث ما ينبغي أن تكون عليه من الرتبة، ومرتبة الحق هي الكمال الحقيقي والجمال الصرف، ومن لازم الجمال المحبة. وفي الحديث: «ما وسعني سمواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1] فوصف العبد بالمؤمن دليل على أن هذا الوسع وسع إيمان لا وسع إدراك. ولله در القائل وقد ألقى محبوبه على وجهه شعلةَ نار:

يا محرقاً بالنار وجه محبه ... مهلاً فإن مدامعي تطفيه

حرق بها جسدي وكل جوارحي ... واحرص على قلبي لأنك فيه

ولا شك أن قول المحب لمحبوبه: إنك في قلبي ليس إلا مراده أن محبتك التي هي موجبة لكمال استحضارك لأن صورة جسمك المحسوس في قلبي وهذا في الممكن فكيف في الواجب الذي لا وجود للممكن معه أبداً. ولأجل هذا قال بعد ذلك: «وليس لنجم العذل فيه مواقع»، وأطلق على الأغيار كلها عذالاً سواء كانت روحانية أو جسمانية، لأن مع ثبوتها في بصيرة العارف لا ثبوت للواجب من حيث هو منفرد بالأوصاف الحسنى، ومع ثبوت الواجب في البصيرة وظهور منطويات أوصاف الجلالية والجمالية لا ثبوت للأغيار بالكلية والمقام يقتضي أزيد من ذلك ولكن قصدنا الاختصار والعجلة في هذه الأوراق.

صحا الناس من سكر الغرام وما صحا ... وأفرق كلٌ وهو في الحان جامع

يعني أن كل من أخذ عليه الميثاق في عالم الذر صحا من سكره بشراب المحبة الإلهية التي شربها بكأس: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وذلك لما نزل إلى هذا العالم والتلهي بزخارفه نسي ما كان فيه من قبل، وأحيا هذا الفؤاد الذي لي، فإنه ما صحى من ذلك السكر الذي كان فيه، وهو كناية عن

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (2256) [2/ 255].

مرتبة النهاية التي هي كما قالوا رجوع إلى البداية.

وقوله: «وأفرق كل»، أي كل واحد ممن صحا. وذلك الفؤاد الذي لم يفرق أي لم يفتتن بعالم الأغيار من حيث هي أغيار بل هو ناظر إليها من حيث هي أسرار للواجب الحق فهو جامع لا مفرق، والمراد بالحان حضرة الروح الذي هو منتهى سير جميع الأرواح الجزئية.

حُمَيّا هـواه عـيـن قـهـوة غـيـره مـدام دوامـاً تـقـتـنـيـهـا الأضـالـع

مراده: أن المحبة التي سكر هو بها هي عين المحبة التي سكر غيره بها من أهل الغفلة والغرور وذلك أعيان هذه الموجودات الكونية لكن ينظرها هو بعين لا ينظر بها غيره، فالغفلة والغرور في عين الغير لا في هذه الأشياء كما أن اليقظة والمعرفة عينه هو لا فيما رآه كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

فأوهمت صحبي أن شربي شرابهم به سُرَّ سِرِّي في انتشائي بنظرة

فإن إيهامه للصحب في الصورة التي هم موصوفون بها وقع ضرورياً منه لا قصداً لأنه ظهر لهم في صورة ما هم فيه فالخطأ منهم لا منه كما ورد المرء مرآة أخيه.

هـوى وصـبـابـاتٌ ونـارُ مـحـبـة وتُربة صبرٍ قد سقتها المدامعُ

وهذا بيان للمدام المذكور قبله فكأنه قال: هو هوى وصبابات الخ. وذلك بيان لحمياه التي هي عين قهوة غيره على حسب ما ذكرناه.

وَأَوْلَع قـلـبـي مـن زرودٍ بـمـائـه ويـا لـهـفـي كـم مـات ثَـمَّـةَ والـع
ولـي طـمـعٌ بـيـنَ الأجـارعِ عـهـدُه قـديمٌ وكَـم خـابـت هـنـاك الـمـطـامعُ

مراده بزرود: مقام القرب الذي يقول فيه الحق: «كنتُ سمعه وبصره» كما ورد في الحديث[1] وذلك المقام هو حضرة الروحانية المتوجهة على تدبيره قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30] وموت الوالع في

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [3/ 81].

ذلك المقام هو الموت الاختياري الذي يعلمه العارفون، ومراده بالأجارع مقام المجاهدات السلوكية التي يكابدها العارف في ابتداء سلوكه وطمعه في الوصول إلى منازل القرب، وعهد الطمع قديم لأنه حضرت الإجابة في قوله: بلى عند ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وخيبة المطامع هناك لكثرة السالكين وقلة الواصلين:

أيا زمنَ الرندِ الذي بَين لعلع ... تقضّى لنا هل أنت يا عصرُ راجع
لقد كان لي في ظل جاهك مرتعٌ ... هنيٌّ ولي في الرقمتين مرابع
أَجُرُّ ذيولَ اللَّهوِ في ساحة اللقا ... وأجني ثمار القُرب وهي أيانِعُ
واشربُ راحَ الوصل صَرفا براحةٍ ... تُصَفِّقُ بالراحاتِ منها الأصابعُ
تصرَّم ذاك العمر حتى كأنني ... أعيشُ بلا عمرٍ وللعيشِ مانع
وَمُذ مَرَّ عنِّي العيشُ وأبيض لَمَّتي ... سوَّد صبحي فالدموع فواقعُ

مراده بزمن الرند: نفحات الحق التي كانت تسلمه وتهب عليه وهو في مقام البداية ولما صار في مقام النهاية لم تبق تلك النفحات تبعث بقوته الواهمة لانخراق حجاب الوهم له فهو يتشوق إبداً إلى لذتها الفانية، ومراده بالرقمتين: حضرة روحانيته وجسمانيته لارتقام الحقائق الإلٰهية فيهما وباقي الأبيات معناها كما ذكرنا شعر:

وسربٍ منَ الغِزلان فيهنَّ فينةٌ ... لنا هُنَّ في سَقط العذيب رواتع(*)
أسفرن بدوراً مذ قَلَّبن عَقاربا ... من الشعر خلنا أنهنَّ براقع
رعى الله ذاك السرب لي وسقي الحما ... ولا ضُيِّعت سِربٌ فإنّي ضائع
صَليت بنار أضرمتها ثلاثةٌ ... غرامٌ وشوقٌ والديارُ الشواسع
يُخَيَّل لي أنّ العُذَيبَ قرق ... منام ومِن فرطِ المُحال الأجارع

أشار بالسرب من الغزلان إلى الملائكة المهيمة، الذين هم العالون، وهم لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام، لأنهم لا يعرفون آدم، ولا يعرف كل

(*) وفي نسخة: [مراتع].

واحد منهم الآخر، ولا يعرفون إلا الله تعالى.

وقوله: **فيهن قينة لنا**، أراد أن واحداً منهم متوجه على تدبيرنا بإذن الله تعالى وهو القلم واللوح نفسه والملائكة الأربعة قواه الروحانية، باقي الملائكة قواه الجسمانية وهو الإنسان الكبير على صورته خلق آدم عليه السلام ومراده بسقط العذيب الذي فيه جميع ذلك حضرة العرش العظيم. كما وردت الإشارات إلى ذلك في الحديث بأن النبي ﷺ قال: «ما السمٰوات السبع والأرضون السبع إلا في جوف قنديل مغلق في العرش وهناك قناديل لا يعلم بعدتها إلى الله تعالى» وسفورهم له بدور كناية عن ظهورهم له في الصور الآدمية من حيث هو آدمي لا من حيث هم، لأنهم ملائكة عالون مجردون وهم الأفراد الخارجون عن نظر الحق والمهيّمون في الحق.

وقوله: **يخيل لي الخ**: إشارة إلى قول النبي ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] فيقال لهم ذلك وهو في الحياة الدنيا فإذا ماتوا انتبهوا من نوم حياتهم الدنيوية ويقال لهم ذلك أيضاً وهم في الحياة البرزخية فإذا ماتوا منها بالبعث انتبهوا من نوم حياتهم البرزخية ويقال لهم ذلك أيضاً وهم في الحياة الأخروية فإذا ماتوا منها باستقرارهم في جنة أو نار انتبهوا من نوم الآخرة ويقال لهم ذلك أيضاً وهم في الحياة الأبدية في الجنة والنار فإذا ماتوا منها برؤية الحق سبحانه إما من تجلي الجمال والرضوان وإما من تجلي الجلال والغضب والسخط انتبهوا عند ذلك من النوم وذهبت عن بصائرهم صبغة الغرور بالأغيار وعرفوا أن الله هو الحق المبين.

فلا نارَ إلا ما فؤادي محلها ... وما السُّحب إلا ما الجفون تدافع
ولا وجدَ إلا ما أقاسيه في الهوى ... ولا الموت إلا ما إليه أسارع
فلو قِيسَ ما قاسَيْتُه بجَهَنَّم ... مِنَ الوجد كانت بعضَ ما أنا قارع

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (2795) [2/ 414]. وقال: هو من قول علي بن أبي طالب لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري ولفظ في ترجمته: ومن كلامه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وإذا ماتوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم انتهى.

جفوني بها نوحٌ وطوفانها الدما ... ونوحي رعدٌ والزفير اللوامعُ
وجسمي به أيوبُ قد حلَّ للبلا ... وكم مسّني ضُرٌّ وما أنا جازع
وما نار إبراهيم إلا كجمرة ... من الجمر اللاتي خبتها الأضالع
وكم في فؤادي تراءت كآبة ... تَشَعَّب مُذ شطَّ مزاراً صرائع(*)

وهذا جميعه بث ما يجده من الشوق الشديد في محبته للخلق فإن الأشواق كلها إلى الأشياء الكونية على اختلاف أنواعها هي أشواق إلى الحق من حيث إن كل شيء منها متشوق إليه حجاب على الحق الذي هو وراءه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ [البُرُوج: 20].

ومعنى الورا هنا المغايرة المطلقة لا الجهة المعلومة فلو زال الحجاب عن كل مبتلى ومشوق لرأى بلاءه للحق وشوقه بالحق للحق فيزيد البلاء ويزداد الشوق أضعاف ما كان. والنار والسحب طوفان نوح. والرعد وبلاء أيوب ونار إبراهيم، وحوت يونس، وحزن شعيب، ووهن عظم زكريا، كلها أمور حقيقة غير ما هي ظاهرة بالنسبة إلى أهل الغفلة وهي حضرة الإلٰهية يعرفها الكاملون، والألَم منها لعارفها أزيد مما يظهر لجاهلها، فالمغفلة هي بالنسبة إلى مقام عارفيها المقام الأرقى الجامع تفضيلاً على ما يعرفه الجاهل منها عند نسبتها في بصيرته إلى من هي منسوبة إليه عنده، فيكون ذلك خطاباً من العارف إلى غير العارف، والشيء واحد، والحالتان مختلفتان، والله تعالى أعلم.

يا يوسُفَ الدنيا أنقذتك في الحشا ... من الحزن يعقوبٌ فهل أنتَ راجع
أتينا جار(**) الذل نحو عزيزكم ... وأرواحنا المزجاة تلك البضائع
فإن يكن عطفاً أهلٌ وأهله ... وإن لم يكن كان العذاب مواقع

(*) ورد البيت في نسخة على النحو التالي:
وكم في فؤادي من شعيب كآبة ... تشعَّب مذ شطَّت مزاراً مرابع
(**) وفي نسخة ورد كلمة [تجار] بدل [جار].

فكل الذي يقتضيه في رضاكم مرامي دفوق القصد ما أنا صانع
تلذُّ لي الآلام إذ أنت مُسقمي وإن تمتحني فهو عندي صنائع
تحكَّم بما تهواه لي فإنني فقير لسلطان المحبة طائع
أحببتك لا لي بل لأنك أهله وما لي في شيء سواك مطامع
فَصِلْ إن ترى أو دع وعدّ عن اللقا وأوعد وعداً وعد فما أنا قانع[1]
تمكن مني الحب فانمحق[2] الحشا وأتلفني الوجد الشديد المُنازع
وأشغلني بها عن سوائها وأذهلني عن الهوى والهوامع
وقد فنيت روحي لقارعة الهوى وأفنيت عن محوي بما أنا قارع
وقام الهوى عندي مقامي فكنته وغيبت عن كوني فعشقي جامع
غرامي غرامٌ لا يقاس بغيره ودون هيامي للمحبين مانع

اعلم أن العالم كله لما كان في علم الحق سبحانه وتعالى، وقد أخرجه الله تعالى من علمه إلى كونه، وكان ذلك الإخراج بطريق التجلي بذاته في حضرات أسمائه وصفاته، خرج كل شيء من الكون على صورة المعلوم الذي يعلمه الحق تعالى على حسب الموطن. والمعلومات الإلٰهية عين العلم الإلٰهي من وجه، والعلم الإلٰهي عين الذات الإلٰهية من وجه، فكل شيء مما ظهر من الكون صورة الحق تعالى من وجه علمه بذلك، ولا صورة للحق تعالى من حيث هو، فافهم هذا فإنه نافع لك جداً فيما سيأتي إن شاء الله تعالى: وإذا علمت هذا فاعلم أن الموجودات الكونية على أنواع: منها الكامل والناقص وهما على درجات ومقامات لا تحصى فيوسف الصديق عليه السلام صورة إلٰهية كاملة على حسب ما ذكرناه ومن هذا الوجه كان هيام يعقوب عليه السلام به ومحبته له فقول المصنف رحمه الله تعالى: أيا يوسف الدنيا يخاطب الحضرة الإلٰهية من حيث تجليها في الصورة اليوسفية ثم أخذ يشكو

(1) وفي نسخة [وإلا فدون الوصل ما أنا قانع].
(2) وفي نسخة [فامتحق].

لها ما يجده من الأشواق إليها ويتكلم بلسان الغزل بما لا يخفى معناه عند أهل الأدب وليس مرادنا في هذا إلا بيان المواضع المستشكلة من جهة المعرفة الإلٰهية فلا نطيل بيان ما عدا ذلك، والله أعلم.

غرامي والتبريح للروح لازم ... وسقمي والآلام للجسم تابع
ولوعي وأشجاني وشوقي ولوعتي ... لجوهر ذاتي في الغرام طبائع
وشوقي ونار الهوى فهو الهوى ... وتربي والماء ذلتي والمدامع
يلوم الورى نفسي لفرط جنونها ... وليس بأذني للملام مسامع
ومذ أوترت أحشائي حُبُّك أنني ... لسهم قسيّ النائبات مواقع
وما لي إن حل البلاء التفاتة ... ومالي إن جاء النعيم مراتع

أما ملامة الغرام والتبريح لروحه فهو ظاهر لأن الروح لما خلقت من غير توسط سبب بينها وبين الحق تعالى عندها كان ظاهراً من حيث تجليه الذي أثبتها في عينها بعد أن كانت في علمه وباطناً من حيث كنه ذاته فلازمها الشوق إليه من حيث معرفته في معرفة من جهة تجليه. وهو غيب عنها والشوق للغياب ومن لزم المحبة الروحانية قيام الجسم بأوامر المحبوب ونواهيه فاقتضى ذلك دوام المجاهدة الشرعية فتبعث الآلام والأسقام للجسم بسبب ذلك. ثم إنه قال رحمه الله تعالى وقدس سرّه العزيز: وما لي أن حل البلاء يعني إن قدرت على أني أدخل جهنم في يوم الجزاء فليس لي التفاتة إلى ذلك لانتقالي بك لا بسواك من جهة أن جهنم وما فيها صور لك من حيث تجليك فيها على حسب ما قدمنا ولذلك إن أدخلتني الجنة وأذقتني نعيمها فأنا مشتغل بك عنها أيضاً.

وأما أنا من يسلو ببعض غرامه ... عن البعض بل بالكل ما أنا قانع
وشوقي ما شوقي وقيت فإنه ... جحيمٌ له بين الضلوع مواقع
وبي كمد لو حمّلته جبالها ... لَدُكّت برضواها وَهُدّت مواضع(*)

(*) وفي نسخة وزد كلمة [صوامع] بدل [مواضع].

ولي كبد حراء من ظمأ بها عليك ولم يبرد غليلا مصانع

يخيل لي أن السماء على الثرى طبقن وأني بين ذلك واقع

ونفسي نفسٌ أيٌّ نفسٍ أبيّةٌ ترى الموتَ نصب العين وهي تسارع

وهذه تتمة شرح المحبة التي هي آخر طور من أطوار العلم وأول طور من أطوار المعرفة وهي الحالة البرزخية ولهذا يذكرها العارفون في ابتداء قصائدهم السلوكية يشرحون أحوالها، ثم أخذ يذكر بعد ذلك أحوال البداية وأحوال المجاهدات في طريق السلوك إلى ملك الملوك فوصف الكمد والحزن الذي يعتريه بسبب مخالفة مقتضيات النفس والهوى ومدافعة الموانع والعوائق البدنية والدنيوية.

ثم ذكر عن نفسه أنها نفس أبية أي سريعة تقتحم المهالك طمعاً في تحصيل مطلوبها ولولا أنها كذلك لرجعت من طلب الحق ورضيت أن تكون مع الخوالف وطبع الله على قلبها كما ذكره الله تعالى في حق أهل الضلال. ومن هنا يقال أن بذر الإرادة إذا وقع في القلب وحفظه الله تعالى لم تحركه زعازع النفس والهوى حتى نبت وخرج من الثمر الطيب وإن لم يحفظه الله تعالى ذهب ولم يفد نتيجة أبداً، فكم من مريد بعدت عليه الشقة ورأى الطريق وعراً فكبرت عنده نفسه فاختار الاحتفاظ عليها وأعرض عن جانب ربه والإقبال عليه فصغر الحق في عينه فهلك. وكم من مريد لما رأى تلك الأهوال العظام والمهالك الصعبة صغرت عنده نفسه في جانب عظمة محبوبه ومطلوبه الذي هو ربه فاختار الإقبال على ذلك كله وكبر الحق في عينه فنجى، ولهذا كان طريق الله تعالى لا يقدر على سلوكه إلا أهل المحبة حتى يكون لهم من نفوسهم دواعي متوفرة تسوقهم إلى مطلوبهم ولا يمكن الوصول إلى الله تعالى بغير المحبة، والمحبة قسم واحد في الحقيقة وإن انقسمت عند أهل الحجاب إلى محبة إلٰهية ومحبة كونية. ولولا المحبة الكونية ما تحققت المحبة الإلٰهية فهي لب الكونية والكونية قشرها والقشر هنا عين اللب لأن الكل لب ولا قشر، لأن حضرة التنزل الإلٰهي عين الأثر والأثر عين المعلوم

الإلهي المتجلي به الحق وكونه عينه من حيث إحاطته به فافهم.

وبحث المحبة طويل الذيل وفي الكيل ربما يحتاج إلى مصنف مستقل وليس هذا موضع استيفاء ذلك.

[صفات المريد الصادق]

وعزمي وزعمي أنه فوق كلما	يراد وظني إنما هو نافع(*)
تسامر عيناي السها بسهاءها	وتسال بل ما سال إلا المدامع
ويرقب منك الطيف جفني دجنة	وكم زاره طيف وهو هاجع
ويخبرني عنك الصبا وهو جاهل	فتلتذ من أخباركم لي مسامع

ومن صفات المريد الصادق أخبر بها عن نفسه في ابتداء سلوكه زمان إرادته، وذلك أن يكون همه على تحصيل مقام القرب في الحق ويهمه في معاني كل شيء من حيث إن ذلك تجل من تجليات الحق، وجدّه واجتهاده في طلب الحق، ووجده وغرامه في كمال جمال صفات الحق، وعزمه دائماً على طلب الترقي وعدم القنع بما ظهر له من الحق، وزعمه وتيقنه وجزمه أن الحق فوق جميع ما هو طالب، وأنه منزه عن وقوع قصد القاصدين عليه، لأن القصد لا يقع إلا على حادث والحق تعالى قديم منزه عن مشابهة الحوادث. وهذه مرتبة الحق التي كلفنا الشرع بمعرفتها خالية عن البدعة والزيغ، فلا بد للمريد منها في ابتداء سلوكه، وهي التي ذكرها علماء الشرع وصنفوا فيها المصنفات.

ومن صفات المريد الصادق أيضاً أن يكون ظنه دائماً أن الحق تعالى نافع له مع خوفه أن يكون ضاراً له من حيث لا يشعر، لأن من أسمائه تعالى الضار النافع، ولا يغتر بطاعته ولا معصيته. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، فإذا أراد الله تعالى نفع بالمعصية بأن خلق في العبد التوبة منها، وإذا أراد ضر بالطاعة بأن خلق في العبد الرياء بها والسمعة،

(*) وفي نسخة ورود كلمة [واقع] بدل كلمة [نافع].

ونحو ذلك، ويكون اعتماد المريد الصادق دائماً على الحق تعالى لا على شيء حتى يمكنه أن ينجو منه.

ومن صفات المريد الصادق أيضاً كثرة السهر في التفكر في آثار الحق تعالى بعد معرفة مرتبته تعالى التي ذكرناها، ليلاً يسبقه التفكر فيه تعالى، لأن التفكر في ذات الحق تعالى معصية ولا يمكن أبداً، لأن المخلوق ليس فيه من الخالق شيء حتى يلتحقه بذلك القدر الذي فيه من الحق تعالى، وإنما يتوهم المخلوق أن فكره في الخالق، وذلك سوء ظن بالله تعالى.

ومن صفاته كثرة البكاء على فوات حظه من الحق تعالى، وأن يكون دائماً مراقباً طيف خيال محبوبه في كل ما يجده، ومعنى ذلك أن الأشياء في هذا العالم الدنيوي في منام كما قال ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] والنائم تظهر له حقائق الأشياء فيراها على خلاف ما هي عليه في الغالب فقد يرى اللبن في منامه فيعبر له بالعلم، والقيد فيعبر له بالشرع والدين، والبقر فيعبر له بالسنين، فيظهر ما لا صورة له في المنام في صورة، فتكون الصورة في بصيرة الرائي، والرائي على ما هو عليه من عدم الصورة وها هنا كذلك فإن جميع الكائنات الخارجة من العدم صور تجليات الحق تعالى، وهي عين المتجلي الحق، ما عدا تلك الصورة التي ظهرت لنا من جهتنا، سواء كانت صورة حسية أو عقلية فلو عبّرنا مناماً في هذه الحياة الدنيا، وعبّرنا عن هذه الصورة التي ظهرت لنا مناماً، ومحوناها من عين بصيرتنا لعرفنا الحق تعالى وتحققنا أنه لا يشبه شيئاً مما ندرك بالحس أو بالعقل، وحصلنا على الإيمان الكامل كما قال الشيخ عبد الوهاب السودي اليمني قدس الله سره العزيز من جملة أبيات في ديوانه الشهير:

لو تجلت عنهم ظلم ... وانمحوا عن عالم الصور
شاهدوا معناك منبسطا ... سارياً في سائر الفكر

---

(1) هذا الأثر سبقت الإشارة إليه.

ودروا أن الحجاب هم عن جمال المنظر النضر
وقضى يعقوب حاجته وانتهى زيد إلى الوطر

والمراد بالصبا: الريح التي تهب من مطلع الشمس وقد كنى بها عن حضرة الأمر الإلهي من غير واسطة، وكونها تخبر ذلك المريد الصادق عن حضرة محبوبه، هي المعارف والعلوم الإلهية التي تفيض عليه من ذلك الجناب، ومع ذلك حضرة الروحانية جاهلة بما تضمنته فيها من الروحانيات الجزئية الفاصلة لكمال اندهاشها في جلال الله تعالى وجماله.

إذا غرَّدتْ ورقا على غصن بانةٍ وجاوب قمريٌّ على الأيك ساجع
فأذني لم تسمع سوى نغمة الهوى ومنكم فإنني لا من الطير سامع
ومن أي أينٍ كان إذ هبَّ ضايع فلي فيه من عطر الغرام بضائع
وإن زمجر الرعد الحجازي بالصفا وأبرق من شُعبي جياد ولوامع
يصورُ لي الوهمُ المخيل أنَّ ذا سناك وهذا من ثناياك ساطع
فاسمع عنكم كل أخرس ناطقاً وأبصرُكم في كل شيء أطالع

وهذ من صفات المريد الصادق أنه كلما سمع صوتاً من أصوات الطيور أو الرعود أو غيرها، أو شمّ رائحة عطره ورأى ضياء برق أو غيره ونحو ذلك من الأشياء، ويحضر عند إدراك ذلك، فلا يغفل عنه بحيث ينكشف أمر ذلك الشيء على ما هو عليه، فيرى أن ذلك تجلٍّ من تجليات الحق تعالى عليه، ثم يرى أن ذلك الانكشاف تجل أيضاً من تجليات الحق في صور الالتباس بحسب المتجلى له، لا بحسب المتجلي تعالى وتقدس كما قدمنا، ولهذا قال: يصور لي الوهم الخ.

وقوله: أن ذا ثناك يعني: هذا الذي أدركته هو ثناك على نفسك يعني مدحك نفسك بالكمال المطلق والتنزيه التام عن مشابهة ذلك الشيء الذي أخرجته من العدم، فكأنك كلما أخرجت شيئاً من العدم قلت بلسان ذلك الشيء الذي هو عينه: أنا منزه عن مشابهة هذا الشيء وهكذا على تنوعات

الأشياء من الأزل إلى الأبد. وهذا معنى تسبيح الأشياء بحمده تعالى كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]. ولك أن تجعل فاعل يسبح ضميراً عائداً إلى الله تعالى وضمير بحمده راجع إلى شيء يعني أن الله تعالى يسبح نفسه بنفسه وينزهها بحمد كل شيء أي بالوصف الصادر من كل شيء لله تعالى بالجميل الاختياري. وذلك الوصف هو عين ذلك الشيء.

وقوله: وهذا من ثناياك يعني: أن البرق اللامع منبعث عن صفاتك الحسنى، والمراد بالبرق أصل جميع العوالم، وهو الروح الكلي المنبعث عن الأمر الإلٰهي من غير واسطة والبيت الأخير كالبيان لما ذكرنا قال:

[رؤية جمال الاشياء]

إذا شاهَدَت عيني جمال ملاحة فما نظري إلا بعينك واقع

وما اهتزّ قد قنا تحت طلعة مِنَ البدر أبدَت أم خبتها البراقع

ولا سلسلت أعناقها بغرامها تصافف جعد خطهُنَّ وقايع

ولا نقطة خال الملاحة بهجة على وجنة إلا وعرفك بارع

فأنت الذي فيه يظهر حسنه به لا بنفسي ما له من يُنازع

مراده أن جميع ما يظهر في التكوين من أنواع الملاحة وجميع الأشياء موصوفة بالملاحة، لأن كل شيء متقن في بابه، وإنما اقتصر على ما يظهر لكل أحد من ذلك، إنما بذلك الحق تعالى تجلى لذاته بذاته في مظاهر أسمائه وصفاته، فجميع التعيينات والتعقيدات من الصور والهيئات هي مقدار ما أعطى العدم من تجلي الحق تعالى، والمتجلي على ما هو عليه لم تقيده هذه التنوعات ولا تقيد بشيء منها، كما أن الزجاجة المختلفة الألوان إذا طلعت عليها الشمس تظهر الشمس من كل زجاجة بلون تلك الزجاجة، مع أن الشمس لم تتغير في ذاتها ولا قيدتها تلك الزجاجة الملونة، بل لو جيء بأكثر من ذلك الزجاجات لظهرت الشمس بذلك ولم تتغير هي في ذاتها، فالمتجلي الشمس وشعاعها صفاتها، واللون المخصوص بعين تلك الزجاجة وهو

صورتها وهيئتها، ولله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض.

وقد ورد في الكتاب والسنة ما يؤيد هذا عند أهل التحقيق، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: 49] على قراءة رفع كل، والمعنى أن جميع الأشياء المخلوقة بقدر هي نحن. والمراد من حيث إنها هي المتجلي بالحق سبحانه وتعالى، وجميع الأشياء تسبيحاته وتنزيهاته وتقديساته ذاته بذاته على حسب ما ذكرنا فيما سبق، فكأنه تعالى لما ظهر ظهر مسبحاً نفسه بنفسه لنفسه، فكل ما خرج شيء من العدم كان قول الله تعالى: إني لا أشبه هذا. ولذلك كان خروج العالم من العدم بصفة القول كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: 40].

وفي السنة في حديث التقرب بالنوافل: «كنت سمعه وبصره ويده» الحديث[1] والمراد من الحيثية المذكورة:

وإن حس جسمي من كثيف خشونة ... فلي فيه من ألطاف حُسنك رادع

اتخذتك وجهاً والأنام بطانة ... فأنجُمُهم غابت وشمسُك طالع

يعني إذا أدركني شيء من الألم فإنما ذلك رادع لي من ألطاف حسنك وهو تجلٍّ من تجلياتك الجميلة، اشتملت على الجلال من حيث إن القائل لا يحسن ويطيب إلا بذلك فلو تبدل الألم بلذة لكان ذلك تجل من تجلياتك الجميلة، اشتملت على الحال من حيث إن القائل يفسد بذلك ولا يحسن. وهكذا كل حال من الأحوال.

وقوله: اتخذتك وجهاً الخ يعني لا أقصد ولا أواجه إلا أنت في كل شيء من حيث إنك أنت المتجلي لا سواك وأنت المقصود، وأما المخلوقات كلها فهي بطانة أي ستارة على ظهارة وجهك الكريم، فهم الحجب وهم المجالي، فأنجمهم التي هي ذواتهم المستمدة منك غابت في عدمها، وشمسك التي هي

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

تجليك الرحماني طالعة في شهودي وعياني.

[احوال المريد الصادق في عباداته]

فديني وإسلامي وتقواي أنني بحسنك فان لأتمارك طايع

إذا قيل قل لا قلتُ غيرَ جمالها وإن قيل إلا قلت حسنك شايع

أصلي إذا صلى الأنام وإنما صلاتي بأني لاعتزازك خاضع

أكبر في التحريم ذاتك عن سوى واسمك تسبيحي إذا أنا راكع

أقوم أصلي أي أقيم على الوفا بأنك فرد واحد الحسن جامع

واقرأ من قرآن حسنك آية فذلك قرآني إذا أنا خاشع

وأسجد أي أفنى وأفنى عن الفنا وأسجد أخرى والمُتَيَّم والع

وقلبي مذ أبقاه حسنك عنده تحياته منكم إليكم تُسارع

ثم أخذ يذكر أحوال المريد الصادق من حيث معاملته مع الحق تعالى في إقامته الأوامر الشرعية المفروضة عليه من حيث الباطن، بعد إتقانه إياها معرفة وفعلاً من حيث الظن، فبدا بالدين والإسلام والتقوى، ومعنى ذلك بحسب ظاهر الشرع معلوم مقرر في كتب الأئمة رحمهم الله تعالى. والمريد الصادق لا يقنع بما يظهر له من المعنى العام في ذلك وإنما يتجاوز من قشور تلك المعاني الظاهرة إلى لبوبها بحيث تكون صورة ذلك، عنده وعند غيره واحدة، ولكن ينقلب المعنى بالأرقى من ذلك المعنى الأول، فالدين والإسلام والتقوى لها صورة قلبية وقالبية تبقى موجودة عند العوام والخواص، ولكن تنقلب تلك الصور عند الخواص بأعلى مما هي عند العوام، فصورة الدين الإطاعة لله تعالى أمراً ونهياً، وصورة الإسلام الانقياد والتسليم ظاهراً وباطناً، لأفعال الله تعالى وأحكامه في الخير والشر، وصورة التقوى التحرز والتجنب عما نهى الله تعالى عنه.

وهذه الصور الثلاثة موجودة عند العوام والخواص ولكن انقلبت في الخواص إلى صور أعلى وأرقى من ذلك، وبيانه أن الخواص لما رأوا صورة الدين التي هي

الإطاعة لله تعالى وعلموا أن الإطاعة لا بد لها من مطيع ومطاع، ومعنى يوصف به المطيع يسمى إطاعة، ولوازم ذلك من زمان ومكان ونحوه. وكذلك الإسلام يحتاج إلى مسلم ومسلم له وإسلام، والتقوى يحتاج إلى متقي ومتقى عنه وتقوى.

وعلموا أن المطاع والمسلَّم له والمتقى منه واجب الوجود وما عداه جائز الوجود، ولا وجود لجائز الوجود مع واجب الوجود أبداً، وإنما جائز الوجود موجود وجوداً مجازياً بالنسبة إليه فقط. وحملتهم الغيرة على محبوبهم الحق أن لا يشاركوا معه في وجوده شيئاً من الأشياء، فبقيت صورة الإطاعة والإسلام والتقوى عليهم ظاهراً وباطناً، وفسروها باطناً بالفناء في جمال الحق تعالى وحسنه الحقيقي، ولذلك قال: فديني الإسلام إذ قال في كلمة الشهادة إذا قيل أي: إذا قال لي أحد قال لا إله. قلت: غير جمالها، أي: أقول معنى لا إله عندي لا غير جمال هذه المحبوبة التي هي حضرة الحق تعالى وإن قيل إلا، أي وإن قال لي أحد قل: إلا الله، أقول إلا حسنك يا أيها المحبوبة شائع، أي: ظاهر. والمراد أن معنى ذلك عندي لا غير جمالها إلا حسنها، والجمال إذا ظهر كان حسناً فهو باطن الحسن والحسن ظاهر. ولهذا قال: حسنك شائع. ثم قال: أصلي إذا صلى الأنام، أي الخلق المكلفون. والمراد أني أصلي كما يصلون ظاهراً وباطناً، ولكن لما كنت في حقيقة أمري قائماً بقدرة من أصلي له كانت صلاتي في الحقيقة ليست فعلاً مني بل مجرد خضوع وتذلّل لعظمة من أنا محتاج إليه في كل حركة وسكنة ظاهراً وباطناً، وهو المستغني عني في جميع شؤونه سبحانه وتعالى.

ثم أخذ يفصل ذلك فقال في التكبير أن يقول: الله أكبر بلسانه، وفي قلبه أنه كبر ذات الله تعالى عن كل ما سواه، فنسي ما سواه تعالى بقلبه لاشتغاله بالدخول في حضرته تعالى، ثم قال في تسبيح الركوع إنه يسبح الله تعالى فيه بلسانه في قلبه أن ذلك التسبيح اسم من أسماء الله تعالى ظهر أثره فيه وهو اسم الله تعالى، ثم ذكر أنه يقوم في الصلاة ببدنه ظاهراً ومعنى ذلك باطناً أنه يقيم على الوفاء بعهده تعالى الذي أخذه عليه وهو الإقرار له تعالى بالربوبية

لما قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

ثم لما كان وصف الربوبية للحق تعالى مشتملاً على الفردية الذاتية والجمعية الصفاتية والتوحيد في الجمال المطلق عبر عن ذلك بقوله بأنك فرد واحد الحسن جامع، ثم ذكر أنه يقرأ في صلاته القرآن بلسانه ظاهراً في حال القيام المذكور وأنه باطناً ناظر إلى حقيقة القرآن المنزل في اللوح المحفوظ وهو آيات أي علامات دالة على حسن الحق سبحانه وتعالى ولم يقل جمال، لأن الحسن ما ظهر من الجمال كما ذكرنا.

ثم أخبر أنه يسجد في صلاته بأعضائه السبعة ظاهراً وأنه باطناً يلتحق بأصله وهو الأرض بحيث يفنى عن كل شيء. وحقيقة الفناء الكشف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه ورفع حجاب الوهم عن عين بصيرته، كما أن الإنسان إذا رأى شبحاً في الليل فتصوره في صورة فارس وذلك الفارس قاصده ليقتله فإنه يكاد يتلف من شدة الوهم فإذا تأمل ذلك ورزقه الله تعالى المعرفة والكشف عن حقيقة ذلك الشبح وجده شجرة في الفلاة وقد ميلها الريح فظهر له من صريرها صوت توهمه صوت فارس هاجم عليه فانظر فإن صورة الفارس وصورته عند ذلك التوهم في حال توهمه أمر حقيقي لا شبهة عنده فيه، وربما إذا قال له أحد أن ذلك أمر وهمي ظهر لك من شيء له حقيقة أخرى غير حقيقة الفارس وإنما صورة الفارس في وهمك فقط لا فيما هو حقيقة الأمر يكذب بذلك ويقطع أنه خطأ محض وربما ينسب القائل إلى نقصان في العقل حيث أنكر الضرورة مع أن التلبيس والخطأ في بصيرته هو كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18]، يعني هو الحق في حقيقة الأمر صم عن سماعه من عارفيه بكم عن النطق به لأنه باطل عندهم، عمي عن رؤياه وإدراكه. ثم إنَّ الفناء، المذكور له حقيقة أخرى غير ما هو ظاهر لصاحبه، فلا بد من الفناء عنه حتى يظهر حقيقة الأمر كمال الظهور، ولذلك

قال: وأفنى عن الفناء وأسجد أخرى يعني أني أسجد في كل ركعة سجدتين ظاهراً كما هو المشروع في السجدة الأولى باطناً أفنى عن كل ما سوى الحق تعالى. وفي السجدة الثانية أفنى عن هذا الفناء أيضاً.

ثم ذكر أنه كان إذا فرغ من سجوده يأتي بالتحيات المشروعات ظاهراً، وفي باطن الأمر أن قلبه لما أبقاه حُسنُ الحق تعالى الذي هو ظاهر في الآثار الكونية عند ذلك الحسن نفسه يعني: مشاهداً له على كل حال كانت تحيات ذلك القلب وتسليماته تسارع من الحق تعالى إلى الحق من قبيل قول النبي ﷺ بعد تسليمه من الصلاة: «اللّهم أنت السلام ومنك السلام وإليك رجع السلام»[1].

وهذه الصلاة المذكورة هي صلاة الكاملين من أهل الله تعالى يجمعون بين الظاهر والباطن ولا يتمسكون بواحد منهما فقط فإن صاحب الظاهر فقط حشوي وصاحب الباطن فقط باطني والحشوية والباطنية فرقتان من الفرق الضالة. ومذهب أهل السنة والجماعة الجمع بين الظاهر والباطن كما ذكرنا، فالظاهر صورة للباطن والباطن روح الظاهر، ولا ينتفع الإنسان في الآخرة بصورة لا روح فيها ولا بروح لا صورة لها، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

صيامي هو الإمساك عن رؤية السوى ... وفطري أني نحو وجهك راجع
وبذلي نفسي في هواك صبابة ... زكاة جمال منك في القلب ساطع
أرى مزج قلبي مع وجودي جنابةً ... فماء طهوري أنت والغير مائع

ثم ذكر باقي العبادات، فأخبر أنه يصوم ظاهر الصيام المشروع، ولكن صيامه باطناً هو الإمساك عن رؤية سوى الحق تعالى بحيث لا يرى مع الحق تعالى موجوداً أبداً كوجود الحق تعالى، بل يرى الأشياء معدومة مع وجود الحق تعالى، وكذلك

(1) رواه مسلم بنحوه في صحيحه، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم (591) [1/ 414] ورواه بنحوه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به عاصم الأحول، حديث رقم (2001) [5/ 341].

يمسك عن تناول الشراب والطعام وسائر المفطرات للصائم، لأنه لا يرى لها وجوداً في حالة شهوده للحق تعالى، فكيف يتناول ما لا وجود له.

ثم أخبر أنه يفطر إذا دخل الليل الفطر المشروع، ظاهراً يتناول الأشياء المفطرات في حالة نظره إليه فإن ذلك ليله، وهو في باطن الأمر إنما تناول قاصداً وجه الحق تعالى الذي هو إلى شيء من المفطرات وغيرها كما قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] فيرجع من الإمساك عن السوى من السوى إلى السوى من حيث هو كون وجه الله تعالى إلى ذلك السوى.

ثم أخبر أنه يؤدي زكاة المال إذا وجبت عليه في ماله على حسب القانون الشرعي ظاهراً، وقاصداً بذلك باطناً بذل نفسه التي هي جميع ماله، مع أن الواجب عليه أداء ربع العشر لا الجميع، ولكن ذلك من قبيل من تصدق بجميع ماله.

واختار الفقر على الغناء الذي هو إبقاء الباقي للقيام بخدمة أمر الحق تعالى ونهيه في الأرض، ثم إنه استشعر أن نفسه التي أضافها إليه بقوله: نفسي مظهر من مظاهر جمال الحق تعالى، فهي للحق تعالى لا له فقال: زكاة جمال منك يعني أن نفسي حين بذلتها في هواك كان بذلها في الحقيقة صاروا منك لا مني، فهو زكاة جمالك الذي هو ساطع في قلبي، فأنت الرافع وأنت الواضع.

ثم أخبر أنه كلما أدركته الجنابة بالجماع أو الإنزال تطهر بالماء المطلق الطهور لا بالمائعات كما هو حكم الشريعة المحمدية، ومع ذلك يرى تلك الجنابة المذكورة في حقيقة الأمر إنما هي مزج قلبه الذي هو روحانيته بوجوده الجسماني، وهذا أمر عظيم غاب عنه غير العارفين، فإن حقيقة المرأة في الخارج نفس الرجل، ولهذا يراها صورة جسمانية وتراه كذلك، وهما روحانيات في الحقيقة، وكانت المرأة وجود الرجل الجسماني فهي مازجها الرجل فقد مازجت روحانية جسمانية ولكل روحانية جسمانية كما أن لكل جسمانية روحانية. ولهذا شرع النكاح وهو الإيجاب والقبول بحضرة شاهدي

مع الخلق من الموانع لوجب ذلك التعارف بين الأرواح والأجسام التي في الحقيقة شيء واحد.

وفي الحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] ثم إنَّ كل روح من الأرواح المتعارفة والمتناكرة عين الروح الأخرى ولكن ليس في عالمنا، هذا العالم هو عالم الفرق والحكم وإنما ذلك في عالم الجمع والأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: 50] وكل روح هي عين ذلك الأمر الإلٰهي جميعه، ولكن في عالم الصفات الإلٰهية، في عالم اللوح والقلم، فيستحيل في الأمر أن يصدر عنه روحان وهو واحد، ولكن لما كان كلمح البصر صدرت عنه أرواح متعددة لا تحصى، وهو في الحقيقة روح واحدة متكررة بالأمثال مختلفة الأحوال اختلافاً لا يدخل تحت حصر وبسبب ذلك كان تعددها والأمر الإلٰهي الواحد لا يكرر شيئاً واحداً مرتين لو كرر لطوبق وشوبه. وقضية الأمر الإلٰهي التنزيه المطلق عن مشابهة كلما يخرج من العدم، وهذا معنى كون الأمر واحد يعني لم يتغير بالمشابهة لشيء ترجمة من الأرواح العلوية فضلاً عن الحق تعالى، وترجمة الأرواح العلوية لذلك الأمر الواحد في قوله: كلمح بالبصر، لأن التشبيه لا يقع إلا على المخلوق لا على الخالق ولا شك أن أمر الحق تعالى هو الحق تعالى في عالم كماله المطلق.

ومن هنا فإن الناظم قدس الله سره قال: فماء طهوري أنت، يعني: أن حقيقة ماء الطهارة التي اغتسل به هو الحق تعالى من حيث ترجمة أمره كما ذكرنا ولا شك أن الأغيار كلها في الحقيقة مياه أيضاً وكل واحد منها عين الآخر ولكن لما تنزلت وتفصلت كانت كماء السماء تشربه الأشجار والحشائش فيصير فيها ماء مقيداً فلا تجوز الطهارة به فيسمى مائعاً لا ماء.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (3158) [3/ 1213] ورواه مسلم في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (2638) [4/ 2031] ورواه غيرهما.

ولهذا قال: والغير مانع والمقام يحتمل بيان أكثر من ذلك ولكن في هذا القدر كفاية لكل صنف من أهل الإيمان والله الموفق لا رب غيره.

[بيان أسرار الحج]

أيا كعبة الآمال وجهك حَجَّتي	وعمرة نسكي أنني فيك والع
وتجريد نفسي عن مخيط صفاتها	بوصفك إحرامي عن العين الغير قاطع
وتلبيتي أني أذلل مهجتي	لما منك في ذاتي من الحسن لامع
كانت صفاتٌ منك تدعو إلى	العلا لذاتي فلبَّت فاستبانت شواسع
وتركي لطيبي والنكاح فإن ذا	صفاتي وذاتي فهي موانع
وإعفا حلق الرأس ترك رياسة	شرط الهوى أن المُتَيَّم خاضع
إذا ترك الحجاج تقليم ظفرهم	تركت من الأفعال ما أنا صانع
وكنت كالآلات وأنت الذي بها	تصرف بالتقدير ما هو واقع
وما أنا جبري المقيدة إنني	محبٌّ فني فيمن خبته الأضالع
فها أنا في تطواف كعبة حسنه	أدورُ معنى الدور أني راجع
مُذ علمت نفسي صفاتك سبعة	فأعداد تطوافي في حماك سوابغ
أُقَبِّلُ خالَ الحسن في الحجر الذي	لنا من قديم العهد فيه ودائع
ومعناه أن النفس فيها لطيفة	بها تقبل الأوصاف والذات شائع
واستلم الركن اليماني إنَّه	به نفس الرحمٰن والنفس جامع
واختم تطواف الغرام بركعة	من المحو عما أحدثته الطبائع

ثم أنه شرع في بيان الحج فقال: إذا حجّ على الوجه المقدر في علم الشريعة وقصد الكعبة فقصده في الحقيقة إلى وجه الحق تعالى من حيث أن الكعبة مظهر الذات الإلٰهية في علم الجماد والجماد أعلم بالله تعالى ولهذا كان ساكناً في الظاهر وحركته أضعف الحركات.

ثم ذكر أن عمدته التي يأتي بها في الظاهر كما هو المتعارف هي في

الحقيقة تولعه بالحق تعالى، أي كثرة انهماكه في الظاهر في محبته تعالى، ولهذا كانت العمرة طوافاً وسعياً فقط.

ثم ذكر أنه إذا أحرم ظاهراً كما يحرم الناس وتجرد من ثيابه كان ذلك منه إشارة إلى تجرد نفسه في الباطن عن صفاته الملفقة المضموم بعضها إلى بعض حتى إذا خبث يمكن نسبتها إليه، وإنما هي في الحقيقة أفعال الحق تعالى منسوبة إلى العبد تكريماً له.

ثم ذكر أن تلبيته التي نطق بها بلسانه ظاهراً إشارة إلى تذلل روحانيته باطناً لحضرة الحق تعالى التي ظهرت له من حيث ما يناسبه على حسب التنزيه المطلق الذي جاء به الشرع، فكأن صفات الحق تعالى نادت صفات هذا العبد فلبتها، أي استرسلت معها مطيعة لما تحكمت عليها ولم تنازعها حتى ذلت لها ففنيت فيها فتبدلت بها، فزالت صفات العبد، وبانت صفات الرب، ولكن بانت بعيدة منزهة عن مشابهة الكون.

ولهذا قال: فاستبانت شواسع وذلك من قبيل ما ورد في الحديث القدسي: «كنت سمعه وبصره»[1]. ثم ذكر أنه إذا ترك الطيب والنكاح في الإحرام كما هو مقتضى الحكم الشرعي، فإن ذلك إشارة منه إلى المعنى الباطني وهو ترك صفاته لصفات الحق تعالى وترك ذاته لذات الحق تعالى، فالطيب كناية عن الأوصاف التي يطيب وجوده بها في هذه الوجوه والنكاح كناية عن ذاته التي تتولد عنها الحركات والسكنات.

وأخبر أنه يترك حلق رأسه في الإحرام على حسب ما هو مقتضى الحكم الشرعي ظاهراً وذلك في الباطن تركه للرئاسة، لأن من شرط المحبة الذل والافتقار إلى المحبوب. وذكر أنه إذا ترك في الإحرام تقليم أظافره ظاهراً يكون إشارة منه إلى ترك نسبته الأفعال إليه باطناً بحيث يعتقد أنه في يد الحق تعالى بمنزلة الآلات التي يفعل بها الحق تعالى جميع ما يريد فعله، وليس

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

هذا مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور في جميع أفعاله الصادرة منه، لأن قولهم ينفي للجزء الاختياري من تمام خلقة الإنسان المكلف، وقول الناظم قدس الله سره لا ينفي ذلك، فحاصل قول الناظم أن الله تعالى خلق الإنسان مشتملاً على أعضاء جسمانية وعلى قوى روحانية، ومن جملة تلك القوى الروحانية قوة هي اختيار للشيء وقدرة عليه، وبها يصير الإنسان ذا اختيار وقدرة كما أن من جملة أعضاء الإنسان اليد والرجل وبذلك يصير الإنسان ذا يد ورجل.

ومعلوم أن الإنسان إذا قلنا عنه أنه ذو يد ورجل لا يلزم من ذلك أن يكون إذا مشى يخلق لنفسه المشي برجله، وإذا تناول يخلق لنفسه التناول بيده، وإنما معناه إذا كان ذا يد وذا رجل لا يصح عنه أن يقال لا يد له ولا رجل، والله تعالى هو الذي يخلق التناول والمشي على حسب ما يريد. وكذلك إذا كان له اختيار وقدرة لا يلزم أن يكون يؤثر بذلك شيء، ولا يصح أن يقال عنه أنه لا اختيار له ولا قدرة، بل هو مجبور، وإنما يقال إن الإنسان كله بجميع أعضائه الظاهرة وجميع قواه الباطنة مخلوق لله تعالى وهو في يد الله تعالى بمنزلة الآلات يقلبه كيف يشاء، فإن شاء يجعل له إرادة واختيار أو قدرة على الخير وإن يشاء على الشر.

واكتفى الناظم قدس سره عن ذلك بقوله: وما أنا جبري العقيدة، ثم أخبر أنه محب فني في محبوبه، **تحت الأضالع** أي مكشوف ومحجوب بعبده كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾ [البُرُوج: 20]. ثم ذكر أنه يدور في طوافه حول الكعبة المعروفة كما هو المشروع في الحج ظاهراً، وفي الحقيقة إنما هو دائر حول كعبة حسن حضرة الحق تعالى، وسمي ذلك كعبة من تكعبها أي تربعها فهي على أربعة أركان والحضرة الإلٰهية من حيث ظهور الأكوان عنها مشتملة على أربعة أركان: الحياة والعلم والإرادة والقدرة وهذه الأركان الأربعة لها عندنا أربعة أرواح: إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل. ولها أربعة صور: النار والهواء والماء والتراب. والطائفون بكعبة

هذه الحضرة الإلٰهية أربعة أنواع، وهم: الجمادات والنباتات والحيوانات والملائكة، والإنسان جامع لتلك الأنواع الأربعة بتمامها ولكن تغلب عليه الجمادية، لأن الجزء الغالب فيه التراب وهو مأمور بتغليب الملكية.

وكذلك الجني جامع للأنواع الأربعة أيضاً، ولكن تغلب عليه الحيوانية، لأن الجزء الغالب فيه النار وهو مأمور بتغليب الملكية أيضاً، ولهذا كان الإنسان والجني هما المكلفان في عالمنا هذا، وإرسال الرسل وإنزال الكتب الإلٰهية لأجلهما، فالشخصان الطائفان بالجمعية الكبرى بهذه الكعبة الإلٰهية المذكورة إنما هما الإنسان والجني، ومنهما سابقون ومسبوقون وواقفون ومنقطعون. والناظم قدس الله سره من السابقين في نوع الإنسان ومعنى هذا الطواف في الحقيقة الرجوع إلى ما نشأ منه قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: 55] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 281] الآية ونحو ذلك من الآيات المشيرة إلى ما ذكرنا.

ثم أخبر أن أعداد الطواف بالكعبة سبعة أشواط، وذلك لأن صفات الحق تعالى سبعة وهي: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وصفات هذا الطائف أيضاً سبعة مسماة بأسماء هذه السبعة، فلا بد من الطواف بهذه الكعبة الإلٰهية، أي الدوران حولها، أي الرجوع إليها سبعة أشواط حتى تذهب صفات هذا الطائف في صفات هذه الحضرة المذكورة وتطوي هذه وتنشر تلك، فيحصل البقاء الأبدي والوجود السرمدي لهذه الإنسانية الجامعة وتدخل جنة الصفات، ثم ترقى في فراديس الذات وتنجو من جهنم البعد وعذاب القطيعة. ثم ذكر أنه طاف بالكعبة ظاهراً يقبّل الحجر الأسود كما هو المشروع، ومعنى ذلك الالتحاق في حال الرجوع والدوران على كعبة الحضرة الإلٰهية بنقطة الذات الغيبية في عالم الصفات، وكون الودائع التي لنا في ذلك الحجر من قديم العهد هي وجود العوالم في الكتم الذاتي، ثم ظهورها من الحضرة العلميّة أو الحضرة العلية، والحضرة العلمية

ركن من أركان الكعبة الأربعة كما ذكرنا. وفي هذا الركن من باب الكعبة فإن الدخول إليها لا يمكن إلاّ من هذا الركن. ثم إنه بين قدس الله سره ذلك الحجر الأسود بقوله: ومعناه أن النفس فيها لطيفة معناه أن الذات مع اعتبارها مجردة عن صفات لها حضرتان: حضرة اللطيفة المذكورة التي تقبل الأوصاف والنعوت وهي المكنى عنها بالحجر وهو مقام الذاتيين من أهل الله تعالى وحضرة أخرى ليس فيها شيء من الأشياء، ولا أن تقبل وصفاً من الأوصاف أبداً، وذلك قوله قدس الله سره: والذات شائع.

ثم ذكر أن في حال طوافه بالكعبة يسلم الركن اليماني كما هو المشروع وذلك في الحقيقة إشارة إلى ظهور النفس الرحماني كما قال ﷺ: «نَفَس الرحمٰن يأتيني من قبل اليمن»[1] فكان ذلك وهو الانصراف قبيل تمام الأمرين والخروج، والنفس بفتح الفاء هو يتصرف فيه النفس بكون الفاء على حسب ما تضمنته من المعاني المضمرة فيها، وليس النفس خارجاً من النفس ولا منفصلاً منها فتأمل على وجه التحقيق وافهم، لذلك قال الناظم قدس الله سره: ونفسك بسكون الفاء جامع. ثم أخبر أنه يختم طوافه بصلاة ركعتين كما هو المشروع وأطلق عليهما ركعة مجازاً من إطلاق البعض على الكل كما تطلق الركعة على مجموع القيام والقراءة والركوع والسجود والقعود مع أنها فعل مرة مشتقة من الركوع وأراد في الحقيقة بتلك الصلاة محو ظاهره وباطنه مقتضيات الطبائع الأربعة: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فإنها تقتضي للمجوسي في عالمها أموراً وهمية مزخرفة لا حقيقة لها وتقدم بيان الصلاة الحقيقية، والله الموفق لا رب غيره:

ترى هل لموسى القلب من زمزم اللقا ... مراضع لا حرمن تلك المراضع
فتذهب نفسي في صفاء صفاتكم ... لتسعى بمروة الذات وهي تسارع

---

(1) ورد بلفظ: «ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن». رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة حديث رقم (10991) [2/ 541] ورواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (1083) [2/ 149].

فليس الصفا إلا صفاي ومروتي ... بأني عن تحقيق حقي صادع
وما القصر إلا عن سواكم حقيقة ... ولا الحلق إلا ترك ما هو قاطع
ولا عرفات الوصل إلا جنابكم ... فطوبى لمن في حضرة القرب راتع
على علمي معناك ضدان جُمّعا ... ويا لهفي ضدّان كيف التجامع
بمزدلفات في طريق غرامكم ... عوائق من دون اللقا وقواطع
فإن حصل الأشعار في مشعر الهوى ... وساعد جذب العزم فالفوز واقع
على مشعر التحقيق عظمت في السوى ... شعائر حكم أصلتها الشرائع
وكم من منًى لي في منى حضراتكم ... ويا حسراتي والمُحَسّر شاسع
رميت جمار النفس بالروح فانتشت ... جُهَنَّمُها ماءً وصاحت ضفادع
وأبدل رضوان بمالك وانتشا ... بها شجر الجرجير والغصن يانع
ففاضت على نفسي ينابيع وصفها ... وناهيك صرف الحق تلك الينابع
فطفت طوافاً للإفاضة بالحمى ... وقمت مقاماً بالخليل أبايع
فمكنت من ملك الغرام وها أنا ... مليك وسيفي بالصبابة قاطع
وحققت علماً واقتداراً جميع ما ... تضمّنه مُلكي وما لي منازع

ثم ذكر أنه إذا فرغ من الطواف يشرب من ماء زمزم ظاهراً. وفي الحقيقة موسى روحانيته التي تسمى قلباً من تقلبها في أطوار الشؤون الإلٰهية، رضع من ماء زمزم لقاء الحق تعالى حيث تلك أمه، ورجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها، أي تتردد ذاتها في حقيقة حق اليقين من حرارة الحركة الشوقية، ولا تحزن أنت على فراقها وهي على فراقك، وقد حرمت عليه المراضع من قبل، أي منعت أن تقر به عين جميع الأمهات السفلية لرجوعها كلها إلى أم اللقاء المذكور.

ثم ذكر أنه يسعى بين الصفا والمروة السعي المعروف ظاهراً، وأراد بذلك باطناً اضمحلال جميع صفاته في صفاء صفات الحق تعالى، ساعياً بذلك الاضمحلال جهة مروة الذات الإلٰهية على عدد صفات المعاني السبعة.

ثم أخبر أنه ليس الصفا والمروة المعتبران في حقيقة الأمر لا صفاه ومروته المذكورين لأنهما قديمان، والصفا والمروة الظاهرة حادثتان وهما إشاراتان شرعيتان إلى حقيقتين قديمتين هما لُبّان لهذين القشرين، والمراد بالسعي بعد الإتيان به ظاهراً تحقيق معرفة الحق تعالى باطناً. وقوله: وأما القصر أي التقصير في الحج وهو قطع قدر أنملة من رؤوس شعره رأسه. وفي الحقيقة هو منع الشعور أي الإدراك عما سوى الحق تعالى أو حلق الرأس في الظاهر معروف. وفي الباطن ترك القواطع التي تقطع عن الحق تعالى.

ثم أخبر أنه يقف بعرفات ظاهراً وباطناً، هي معرفة الحق تعالى يقف عندها. ثم أخبر أنه إذا سعى بين العلمين ظاهراً فإنما مراده باطناً السعي على معنى الحق تعالى وهو رتبته تعالى وذلك الجمع بين الضدين والصفات فإنه تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن والمعطي والمانع والضار والنافع والهادي والمضل والمحيي والمميت والمنعم والمنتقم ونحو ذلك فمن اغتر بأحد الضدين من صفات الله تعالى كأن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. ولهذا قالوا: إن الأمن من مكر الله تعالى كفر، واليأس من رحمة الله تعالى كفر أيضاً. وتسمى المزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب والدنو وتسمى جمعاً لتحصيل مقام الجمع فيها كما ذكرنا.

ثم أخبر أن طريقها مشتمل على قواطع وموانع من دون الله تعالى، وذلك الحظوظ النفسانية فإن حصل الإشعار، أي شق مقام النفس في مشعر الهوى أي في حالة لحوق تلك الحظوظ السافلة وساعد جذب العزم، أي جذب الحق تعالى بواسطة سببية عزم العبد فنهض العبد إلى معرفة ربه لا بنفسه توفيقاً وهداية منه تعالى، فالفوز واقع ومحقق.

ثم أخبر أنه في مقام التحقيق عَظَّم شعائر الأحكام الشرعية ولم يهملها، فكان ممن لم يُطف نور معرفة نور ورعه وهو المطلوب في النجاة الأبدية والسعادة السرمدية. ثم ذكر أنه إذا جاء إلى منى كما هو المعروف فإنه في الحقيقة جاء إلى أمان حضرة الحق تعالى المختلفة التي لا تحصره تعالى أبداً، وإذا رأى وادي محسر كان ذلك إشارة منه على تحسره إلى لقاء الحق

تعالى الموعود به في الدار الآخرة وتشوقه إلى ذلك.

ثم أخبر أنه إذا رمى الجمار في منى فهو في الحقيقة قد رمى جمار نفسه بيد روحانيته وصفات النفس سبعة والجمار سبعة.

ثم أخبر أن هذه النفس التي هي جهنم الآخرة من حيث إنها نسخة تلك لجمعية الإنسان للعالم كله لها سبعة أبواب: العينان والأذنان والفم واللسان والفروج، ولها مالك وهو روحها، وعليه تسعة عشر زبانيتها تحت تصرف مالك وهم: القوى الظاهرة في الحواس الخمسة: سمعان وبصران وشمان وذوق ونطق ولمس. وفي الدماغ خمسة قوى: الحس المشترك والخيال والفكر والحدس والحفظ. وفي البطن خمسة: القوة الجاذبة والقوة الهاضمة والقوة الدافعة والقوة المحرقة والقوة الطابخة، فإذا ذهبت النفس صارت جهنمها روحانية، وصارت قواها الظاهرة ضفادع مسبحة لله تعالى صائحة في ذلك الماء، وصارت القوى الباطنية جرجيراً نابتاً في ذلك الماء، وتبدل مالك الروح رضواناً من الله تعالى، وهذا كله في عالم النفس والعالم الكبير مثل هذا العالم الصغير حذو النعل بالنعل لأنهما نسختان، والمطلوب منه يجاهد نفسه هذه المجاهدة بعد الإيمان هو المؤمن، ولهذا العصاة لا يخلدون في نار الآخرة وطبقتهم ينبت فيها الجرجير الأخضر كما ورد في الحديث. وأما الكافر فالمطلوب منه الإيمان أولاً، فلا يقال ذلك فيه إلا بعد الإيمان.

ثم أخبر أن صفات الحق تعالى التي ظهرت له بعد اضمحلال رسوم نفسه وهي الحق الصرف أي الخالص، لأن الصفات الإلهية ليست غير ذات الحق تعالى كما أنها ليست عينها. ثم أخبر أنه طواف الإفاضة الذي هو بعد الوقوف بعرفة وهو طواف الركن. وأما هو في الحقيقة طائف أي دائر حول الكعبة الذات التي أفاضت عليها صفاتها بعد ذهاب صفاته هو واضمحلاله بالكلية.

ثم أخبر أنه اتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فصلى ركعتين عنده كما هو المشروع ظاهراً. وفي الحقيقة وقف في مقام الخليل للتخلل كتخلل المحبة

الإلْهية في جميعه كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلا

ثم كان في هذا المقام ينابيع البيعة الإلْهية للعوالم الثلاثة عالم الملك والملكوت كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10] فكان هو المثل الأعلى في السمٰوات والأرض. ثم أخبر على لسان من استخلفه على التصرف في الأكوان بباقي الأبيات، والله أعلم.

[الرحيل من الحضرة الإلهية إلى الحضرة المحمدية]

فلما قضينا النسك من حجة الهوى ... وتمت لنا من حي ليلى مطامع

شددنا مطايا العزم نحو محمد ... وطفنا وداعاً والدموع هوامع

وجُبنا بتهذيب النفوس مفاوزا ... سباسب فيها للرجال مصارع

حمًى درست للعاشقين رسومه ... فعزوا وكم قد خاب في العز طامع(*)

محل مجالي القرب حال طروقه ... وأوج منيع دونه البرق لامع

ينكّس رأس الريح عند ارتفاعه ... وكم زال عنه السحب والغيث هامع

ترى عبد بهرام في الأوج ساجداً(1) ... وكيوان من فوق السمٰوات راكع

وكم رامح مذ رامه صار أعزلا ... وفي قلبه من عقرب الفقر لاذع

سريت به والليل أوحى من العمى ... على بازل أفليه ما هو ضالع

يجوب الفلا جوب الصواعق في الدجى ... ويرحل عن مرعى الكلا وهو جائع

وإن مر بعد العسر بالماء إنه ... على ظماه عن ذاك بالسير قانع

ثم أخبر أنه قدس الله سره لما فرغ من المناسك المعروفة في الحج على حسب الحكم الظاهر مراعياً المقاصد الحقيقية في جميع ذلك أراد أن يرحل

(*) جاء هذا البيت في نسخة على النحو التالي:

حمى درست للعاشقين طروقه ... عزيز وكم خاب في العزّ طامع

(1) يرى تحته بهرام في الأوج ساجداً.

من مكة التي هي إشارة إلى الحضرة الإلٰهية إلى المدينة التي هي إشارة إلى الحضرة المحمدية لينزل بعد صعوده إلى الأطوار الكونية، فأخبر أنه طاف طواف الوداع بكعبة الذات الإلٰهية مودعاً لها ودموعه إلى أطوار روحانيته هوامع، أي سائلات متوجهات إلى الظهور في الأطوار الجسمانية الطبيعية.

ثم أخبر أنه قطع مفاوز أي صحارى وبيداوات في طريق سيره بين الحرمين: الحرم الإلٰهي والحرم النبوي، وذلك إشارة إلى حقائق الأنوار العلوية الفاتنة لكل من لم تدركه العناية الربانية كما ورد في الخبر أن فوق السمٰوات كواكب كل كوكب لو ظهر لأهل الأرض لعبدوه من دون الله تعالى، وكون رسومه درست أي تتبين ولم تظهر للعاشقين المقبلين فكيف لغيرهم.

وقوله: (ينكس رأس الريح) مراده بالريح الروح لأنها تهب عن الحضرة المحمدية المنبعثة عن الحضرة الإلٰهية من غير واسطة سبب، وتنكيس رأسها ميلها إلى تدبير العالم السفلي وزوال السحب عنه انقشاع الحجب الجسمانية.

وبهرام وكيوان كوكبان في السماء وكذلك السماك الرامح والسماك الأعزل، ولا شك أن هذه الكواكب في الأفلاك، والأفلاك منبعثة عن لوح الوجود، واللوح منبعث عن القلم، والقلم عن النور المحمدي الموصوف.

وقوله: (سريت به) أي بسبب ذلك الحمى المكنى به عن النور المحمدي المذكور، والمراد بالليل ظلمة هذه الأكوان والبازل هو القلب الكامل وكونه يرحل عن مرعى الكلأ وهو جائع من قبيل قول ابن الفارض قدس الله سره:

قال لي حسن كل شيء تجلى ... بي تملى فقلت قصدي وراكا

يعني عدم وقوفه مع شيء ظهر له في سيره مطلقاً لكونه قانعاً بالسير فقط لأنه لو وقف لانقطع ولو انقطع هلك في الحال والله الواقي:

[حقيقة النفس]

هي النفس نعمت مركباً مطمئنة ... فليس لها دون المرام موانع

فياد سعد إن رمت السعادة فاغتنم فقد جاء في نظم البديع بدائع

مفاتيح أقفال الغيوب اتتك في خزائن أقوالي فهل أنت سامع

كشفت عن أسرار الشريعة فانحها فما وضعت إلا لتلك الشرائع

وها أنا ذا أخفي وأظهر تارة لرمز الهوى ما السر عندي ذائع

وإياك أعني فاسمعي جارتي فما يصرّح إلا جاهل أو مخادع

ولكنني آتيك بالبدر أبلجاً وأخفيه أخرى كي تصان الودائع

خذ الأمر بالإيمان من فوق أوجه ونازع إذا نفس أتتك تنازع

فللمرء في التنزيل أوفى أدلّة ولكن قلبي بالحقائق والع

وفي السُّنة الزهراء كُلُّ عبارة بها من إشارات الغرام وقائع

فإن كنت ممن ماله يد مأخذ سوى بصريح التشكل قانع

سأنشي روايات إلى الحق أسندت واضرب أمثالاً لما أنا واضع

وأوضح بالمعقول سرٌّ حقيقة لمن هو ذو قلب إلى الحق راجع

ثم إنَّه لما فرغ من الكلام على الحقيقتين: الحقيقة الإلٰهية والحقيقة المحمدية، وأخبر أن ذلك البازل الذي سار عليه هو النفس بقوله: هي النفس فهي ضمير القصة في مقابلة ضمير اللسان للاهتمام بالنفس ثم مدحها بأنها نعم مركب مطمئنة بعد قطعها مسافة الحقيقتين المذكورتين لأنهما قبل ذلك كانت أمارة فلوامة حتى صارت مطمئنة ولهذا قال: فليس لها دون المرام أي المقصود وهو الحق تعالى موانع لذهاب الأمر بالسوء واللوم عنها. ثم إنَّه نبه السعيد الواقف على هذا النظم بقوله: إن رمت السعادة فاغتنم أي اغتنم هذا النظم.

ثم أخبر أنه جاء فيه ببدائع من المعاني الإلٰهية، وأن مفاتيح أقفال الغيوب في خزائن أقواله فمن أراد فتحها فليأخذ فهم أقواله ويقصد تلك الأقفال به فإنها تفتح إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر أنه كشف عن أسرار الشريعة وذلك لأنه بين الإسلام والإيمان

والطهارة والزكاة والصوم والحج. ثم أخبر أن هذه الشريعة وهي طريقة هذه الأعمال الظاهرة إنما وضعت لأجل ما ذكر من الأسرار الباطنية بحيث أن هذه الأسرار أرواح هذه الأعمال وهذه الأعمال أجساد والأرواح لا تكون بلا أجساد والأجساد لا تنفع بلا أرواح ولا تحمل صاحبها في عقبات يوم القيامة.

ثم أخبر أنه تارة يخفي رمز الهوى الذي هو السر الإلهي وتارة يظهر، ثم أشار إلى أن المراد بذلك السر هو النفس بقوله: وإياك أعني فاسمعي يا جارتي وهي نفسه. ثم أخبر أنه لا يصرح إلا الجاهل إلا بما هو الأمر عليه لأن قوله مثل قول الصدى المسموع بين الجبلين إذا سمعت منه قول أنا فإنه ليس القائل الحقيقي بيقين. فلهذا كان المصرح جاهلاً وقد يكون المصرح مخادعاً أي يريد يخدع المخاطب والسامع فليلقيهما في الزيغ والضلال، ثم استدرك ذلك بقوله: ولكنني آتيك بالبدر أبلجاً أي أوضحه لك حتى تحقق أنه البدر، وأنه مستفاد نوره من نور الشمس، وأنه أثر من آثارها ومجلى من مجاليها ومظهر من مظاهرها، ثم أخفيه مرة أخرى وأشرح لك عدم المناسبة بينهما مطلقاً ولا بوجه من الوجوه، لأن الأمر هكذا في حقيقة حتى تصان الودائع، والودائع مصونة في كل شيء وهي حضرات الحق تعالى فإن الأشياء مظاهر الحضرات ولا مشابهة بينها وبين الحضرات. وهذا معنى صورتها لذلك قوله: خذ الأمر بالإيمان يعني قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ [النساء: 136].

وقوله: (من فوق أوجه): أي ارتقي بإيمانك من فوق أوجه، واحذر أن تفتتن بالأوجه فإن الله من ورائهم محيط وكل شيء وجه من أوجه الحق تعالى كما قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 115] فالأوجه الكثيرة هي الأشياء، والحق تعالى وجه واحد، وإن كان متوجهاً إلى إيجاد جميع الأشياء التي هي الأوجه الكثيرة، فقد نبه تعالى على فنائها كلها بقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] له الحكم فيكم من جهة كونه متوجهاً إليكم

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، و﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] من جهة أنكم هالكون لأنكم كل شيء، وكل شيء هالك، ووجهه فيكم هو الذي يبقى، وقوله: نازع إذا نفس، يعني إذا نازعتك النفس في طلب تعيينها مع الحق تعالى فنازع بها إلى أن تموت ويبقى الحي الذي لا يموت، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]، أي يتنازع في نفسه كل نفس وكل نفس ذائقة الموت فلا يبقى إلا نفسه تعالى.

وهذه نتيجة المنافسة والمنازعة وقوله: فللمرء في التنزيل، أي القرآن العظيم أوفى أدلة وافية بإقامة الحجج على ما ذكرناه من الحقائق الإلٰهية، ولكن قلبي والع بالحقائق الإلٰهية، أي متولع بمعنى مشغوف، محب لها فيشغلني ذلك عن تكثير الأدلة والبراهين من الآيات القرآنية على شيء ذكرته. وقولك في أحاديث النبي ﷺ عبارات واردات لها إشارات متزايدة وافية بالمقصود وموضحة للحقائق الإلهية وكل معنى مسدود.

ثم إنَّه خاطب الواقف على هذه القصيدة الفريدة بقوله فإن كنت ماله يد مأخذ أي ليس لك يد تقدر أن تأخذ بها إشارات تلك العبارات القرآنية النبوية لأنك لا تقنع إلا بالصريح لأجل أن تتشكله، أي تتصوره في عقلك، والرموز والإشارات غير مفهومة عندك اسألني أي أبين وأوضح لك رايات أسندت إلى الحق تعالى واردة في القرآن العظيم وأضرب لك أمثالاً تقرب لك المعاني البعيدة. ومن شرط المثل المضروب أن لا يكون كالمثل من كل وجه بل ولا من وجه شرطه أن يوصلك من الشاهد إلى الغائب فيكون بمنزلة الذي تضعه لصور السطح فإذا صعدت به تركته ولم تنظر إليه.

ثم أخبر أنه يوضح بالبراهين المعقولة سر الحقيقة الذي هو الحق تعالى ولكن ذلك الإيضاح لا يكون لأصحاب القلوب النافرة عن الحق تعالى المشتغلة عنه بعباداته وطاعاته كالعباد والزهاد أو بما لا يعني كالبطالين الغافلين أو بمعاصيه ومناهيه كالكافرين والعصاة وإنما ذلك الإيضاح لقولهم: تركوا الاشتغال بما سوى الحق تعالى ظاهراً وباطناً فتراهم مكبين على عباداته

وطاعاته ومباحاته غير مشتغلين بها عنه، فهم من الأكوان ظاهراً أو باطناً وليسوا مع الأكوان ظاهراً وباطناً من قبيل قول الصديق رضي الله عنه. ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه، فهم مع كل شيء من جهة أن محبوبهم لا ظهور له إلا في كل شيء، وليسوا مع شيء من الأشياء من جهة أن الأشياء كلها عين محبوبهم، فهم الجامعون بين الضدين زاهدون في الدنيا وما فيها وفي الآخرة وما فيها، ومقبلون على الدنيا وما فيها وعلى الآخرة وما فيها فهم الجامعون بين أوصاف الخواص والعوام.

فالخواص يرونهم منهم والعوام يرونهم منهم وهم ليسوا بخواص ولا عوام، فلا يعرفهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة كما ورد: **«أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم أحد غيري»**[1]. وأما إذا ظهر على واحد منهم كرامة خارقة للعادة فعرفه بها أحد العامة أو الخاصة فإنهم حسنوا ظنهم فيه لا عرفوه لأنهم في وادي وهو في وادٍ آخر. ولهذا لما أرادت العامة أن تقلد بعض أصحاب الطرائق من العارفين الماضين كالشيخ عبد القادر الكيلاني والسيد أحمد البدوي وابن الرفاعي وأمثالهم، اخترعوا أشياء ليست عليها هذه السادة من البدع في الزي والذكر والعمل، ولم يعرفوا حقائق مشايخهم، وإنما حسنوا ظنونهم بهم من جهة ما ظهر لهم من الكرامات حيث حضروهم في زمانهم أو سمعوا بكراماتهم حيث لم يحضروهم، ولو عرفوا حقائق مشايخهم لحدّوا حدودهم في مجاهدتهم النفسانية ومعارفهم الإلٰهية، ولكن لا يعرف الفضل إلا ذووه، ومن أين للعميان أن يكرمهم الله تعالى برؤية أوليائه وهم في أس اللعنة والطرد عن معرفته، وقد أوثقهم الله تعالى في قيود التشبيه والتجسيم والتعطيل، وسد على قلوبهم باب التنزيه المطلق الذي دخل منه من شائهم إلى حضرة القرب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم أخذ يبين الحقيقة الإلٰهية على حسب تجلياتها في المظاهر الكونية فقال:

---

(1) أورده في التعريفات [1/ 295].

[تجليات الحقيقة الإلهية]

تجلى حبيبي في مراثي جماله ... ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعاً ... تسمى بأسماء فهن مطالع
وأبرز منه فيه آثار وصفه ... فذلكم الآثار ما هو صانع
فأوصافه والاسم والأثر الذي ... هو الكون عين الذات والله جامع
فما ثم من شيء سوى الله في الورى ... ولا ثم مسموع ولا ثم سامع
هو العرش والكرسي والمنظر والعلي ... هو السدرة اللاتي إليها المراجع
هو الأصل حقاً والهيولى مع الهبا ... هو الفلك الدَّوّار وهو الطبائع
هو النور والظلماء والماء والهوا ... هو العنصر الناري وهو البلاقع
هو الشمس والبدر المنير هو السُّها ... هو الأُفق وهو النجم وهو المواقع
هو المركز الحكمي هو الأرض والسَّما ... هو المُظلم المقتام وهو اللوامع
هو الدار وهو الحي والأهل والغضا ... هو الناس والسكان وهو المراتع
هو الحكم والتأثير والأمر والقضا ... هو العز والسلطان والمتواضع
هو اللفظ والمعنى وصورة كلّ ما ... يحال من المعقول أو هو واقع
هو الجنس وهو النوع والفصل إنه ... هو الواجب الذاتي وهو الممانع
هوالعرض الطاري نعم وهو جوهر ... هو المعدن الصلدي وهو الموانع
هو الحيوان الحي وهو حياته ... هو الوحش والإنس وهو السواجع
هو القيس بل ليلاه وهو بثينةٌ ... أجَل بشرها والخيف وهو الأجارع
هو العقل وهو النفس والقلب والحشا ... هو الروح وهو الجسم والمتدافع
هو الموجد الأشياء وهو وجودها ... وعين ذوات الكل وهو الجوامع
بدت في نجوم الخلق أنوار شمسه ... فلم يبق حكم النجم والشمس طالع

اعلم يا أخي فهمك الله الحقائق وأخذ بيدك إلى معرفة الدقائق أن الحق تعالى متجلٍّ من الأزل إلى الأبد، وله صفات لا نهاية لها، وهي غير ذاته من جهة المفهوم، وعين ذاته من جهة الوجود، فقامت صفاته له من الأزل مقام

المرآة المجلوّة فظهر في كل مرآة بصورة خاصة تحكم عليه تلك المرآة، فالعالم مرآة كبرى فيها جميع الصور الظاهر في باقي المراء والإرادة مرائي، أصغر منها والقدرة مرآة أصغر من مرآة الإرادة. وهكذا باقي المراي والمتجلي في هذه المراء كلها هو الحق تعالى بذاته.

فلما ظهر العالم ظهرت جميع صور الحق تعالى التي هي في حراء صفاته من الأزل ولا مناسبة بين الحق تعالى وبين جميع هذه الصور الظاهرة في هذه المرائي غير أنها كلها صور من غير شبهة ولا صورة له تطابق شيئاً من هذه الصور مطلقاً ولا بوجه من الوجوه ولا صورة له تخالفها أيضاً إلى ما لا نهاية له، ولكن على قدر المحل المنظور فيه تكون صورة الناظر. أرأيت إن الإنسان إذا نظر وجهه في مرآة صغيرة ظهر وجهه صغيراً، وإذا نظر في مرآة كبيرة ظهر كبيراً، وفي مرآة طويلة ظهر طويلاً. وهكذا فانظر ما أعطته المرآة من التحكم في صورة الوجه، ونظر الحق تعالى في مرائي صفاته ليرى ذاته، وذلك النظر لا بداية له، وإنما لم يظهر العالم كله دفعة واحدة لأن مرآة الإرادة أعطت هذا الترتيب.

وإذا علمت هذا فاعلم أن كل شيء ظهر في هذا الوجود الحادث فهو صورة الحق تعالى ظهرت في مرائي صفاته من مرآة الإرادة إلى مرآة القدرة، فذلك الشيء الظاهر هو الحق تعالى بذاته وصفاته لكن لا من جهة صورة ذلك الشيء، وجميع ما تسميه تحت ذلك الشيء بل من جهة الظاهر بذلك الشيء الذي أظهر ظهوره ذلك الشيء، وهو لم يزل باطناً في ذلك الشيء، فهو الظاهر من تلك الجهة التي هو باطن بها، فهو الظاهر الباطن من جهة واحدة، والله واسع عليم.

وليس الحق تعالى هو هذه الأشياء من جهة صورة كل شيء وما نسميه نحن ذلك الشيء، لأن هذا لا يصح أبداً واعتقاده كفر وزيغ والعياذ بالله تعالى، وليس هو مراد الناظم رضي الله عنه بيقين، ولهذا قال: (هو العرش والكرسي) فقد اعترف بالعرش ومغايرته له تعالى باعتبار أنه جعله خبراً والخبر

غير المبتدأ.

وانظر في قوله آخر الأبيات: بدت في نجوم الخلق أنوار شمسه الخ. وهو كالبيان لما أراده فيما قبله. ومعنى ذلك أن الحق تعالى لما كان قيوماً على كل شيء من الأشياء بحيث قيام ذلك الشيء ووجوده به تعالى كان تعالى مع ذلك الشيء بمنزلة الشمس مع النجوم فإن نور الشمس إذا قابل أجرام النجوم ظهر منها ذلك النور على مقدار استعداد تلك الأجرام، فذلك النور الظاهر من تلك الأجرام هو نور الشمس من حيث الظاهر. بل نور الشمس في الحقيقة لم ينتقل إلى تلك الأجرام، وإنما ظهر في الأجرام نور آخر عند مقابلة نور الشمس لتلك الأجرام، ثم هذا النور الذي ظهر عند مقابلة نور الشمس، إذا طلعت عليه الشمس وقرن نورها به محق نورها له وارتفع حكم نور تلك الأجرام وبقي النور للشمس وحدها، كما أنك إذا برحت شمعة في الشمس، فإن نور تلك الشمعة يبقى ولا ينطفىء في ذاته ولكن ينطمس حيث قرن بأنور منه وهو نور الشمس. فما بالك بنور الحق تعالى الذي لا مناسبة بينه وبين شيء من الأنوار الكونية ولا بوجه من الوجوه إذا قرن به نور كون من الأكوان، كما عطس مريد في مجلس الجنيد رضي الله تعالى عنه فقال: الحمد لله. فقال له الجنيد: قل الحمد لله رب العالمين. فقال: وما العالم حتى يذكر مع الله تعالى؟ فقال الجنيد: يا ولدي الحادث إذا قرن بالقديم لا يبقى له وجود، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حقائق ذات في مراتب حقه ... تُسَمّى باسم الخلق والحق واسع

وفي فيه من روحي نفخت كناية ... هل الروح إلا عينه يا منازع

ونزهه عن حكم الحلول فما له ... سوى وإلى توحيده الأمر راجع

مراده: أن جميع ما ذكره من تلك الأشياء الكونية المسماة بتلك الأسماء التي أخبر عنها أنها هي الحق من جهة أنها صور تجلياته في مرآة أسمائه وصفاته. وهي حقائق ذات الحق تعالى وذات الحق تعالى لا تختلف لأنها واحدة من كل وجه واعتبار ولكنها ظهرت في مراتب حقه يعني في تنوعات

صفات جلاله وجماله فتسمت بأسماء الخلق، وكل ذرة من ذرات الخلق اسم تلك الحقيقة الذاتية في مرآة الجلال والجمال. ومن هنا قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]. ثم إنَّ جميع ذرات الموجودات التي كانت وانعدمت أو هي كائنة الآن غير مستوفية لظهورات تلك الحقيقة الذاتية في مراتب الجلال والجمال وكذلك قال: والحق واسع بل ما ظهر من تلك الحقيقة من المظاهر الجلالية والجمالية بالنسبة إلى ما لم يظهر بعد بمنزلة لا شيء إذا قيس بأشياء لا تتناهى وعلى هذا المعنى الإشارة الفارضية في القصيدة الفائية:

وعلى تفنّن واصفيه لحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وقول الناظم رضي الله عنه: وفي فيه من روحي الخ يعني في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: 72]، كفاية في بيان ما ذكرنا وهل الروح المذكورة إلا عين ذات الحق تعالى بالاعتبار الذي ذكرناه فيما سبق من أن الأشياء كلها هي حقائق ذات الحق تعالى ظهر في مرآة صفاته فكانت روحاً ونفساً وبدنا وغير ذلك على حسب ما أعطته تلك المرآة المجلوّة من الظهورات المتنوعة.

وموضع استدلال الناظم قدس الله سره إضافة الروح إليه تعالى مع أنه غير مركب إجماعاً فلا بد أن تكون الروح عينه وذاته ولا يمكن أن تكون عينه وذاته إلا باعتبار المذكور فافهم واحذر أن تعتقد أن هذه الروح السارية في أبدان الحيوانات هي الحق تعالى كما رأيت جماعة من الزائغين يعتقدون ذلك فهماً من كلام الناظم رضي الله عنه وأمثاله من العارفين وهذا لا يصح أبداً عند أدنى مؤمن فكيف عند عارف بل هو زيغ محض وكفر صريح لأنه يصير حلولاً كحلول النصارى والباطنية والناظم قدس الله سره نفى الحلول بقوله: ونزهه عن حكم الحلول الخ. البيت.

فكيف يفهم من كلامه ذلك وقوله: فما له سوى أي ليس للحق تعالى غير

يعني ليس معه تعالى شيء من الأشياء، فكيف يتصور أن يحل في شيء والأمر كله راجع إلى توحيده، وهو الواحد وليس هناك غيره معه، فإن الأشياء كلها ليس لها معه رتبة المعية، لأن وجودها بالنسبة إلى وجوده كوجود نور النجوم بالنسبة إلى وجود نور الشمس كما سبق ذكره من الناظم رضي الله عنه، فافهم ذلك ولا تغفل عنه والله يتولى هداك.

[أحدية الذات]

فيا أحدي الذات في عين كثرة ... ويا واحد الأشياء ذاتك شائع

تجليت في الأشياء حين خلقتها ... فها هي ميطت عنك فيها البراقع

قطعت الورى من ذات نفسك قطعة ... ولم تك موصولاً ولا فصل قاطع

ولكنها أحكام رتبتك اقتضت ... ألوهية للضّد فيها التجامع

فأنت الورى حقاً وأنت إمامنا ... وأنك ما يعلو وما هو واضع(*)

وما الخلق في التمثيل إلا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع

فما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغيران في حكم دعته الشرائع

ولكن بذوب الثلج يرجع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع

ولما قرّر الناظم قدس الله سره أن جميع المكوّنات العلوية والسفلية هي حقائق ذاته تعالى ظهرت في مراتب صفاته على حسب ما قدمناه. نادى الحق تعالى بقوله: فيا أحدي الذات في عين كثرة يعني: يا من ذاته لها الوحدة في حالة ظهورها في جميع هذه الأشياء المكثرة وكثرة الأشياء غير مانعة من وحدة ذاته، ويا واحد الأشياء، يعني يا من هو واحد من حيث إظهاره لهذه الأشياء كلها، فالأحدية له تعالى من حيث ذاته، والواحدية له تعالى من حيث صفاته.

وقوله: ذاتك شائع يعني أن ذاتك مع الأشياء كلها ليست منفردة عن

(*) ورد في نسخة: [وأنت لما يعلو وما هو واضع] بدل قوله [وانك ما يعلو وما هو واضع].

الأشياء بحيث تعد واحدة منها بل هي مع جميع الأشياء حقيقة تلك الأشياء كلها على حسب ما ذكرنا، فهي شائعة في جميع الأشياء، ولهذا لا يجوز أن يقال: أن الله ثالث ثلاثة كما قالت النصارى لعنهم الله تعالى وقبحهم وإنما يقال: ثالث اثنين ورابع ثلاثة وهكذا كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7] فكلما كان المخلوق في مرتبة كان الحق تعالى في مرتبة فوقها وهكذا لأنه تعالى لا يجتمع مع المكوّنات في مرتبة أبداً.

ثم إنّ الناظم رضي الله تعالى عنه بيّن ظهور الأشياء عنه تعالى بقوله: تجليت في الأشياء، أي ظهرت فأظهرتها، لأنها كانت مفروضات مقدرة لا ثبوت لها ولا وجود. فلما ظهرت لها ظهرت، وظهورك لها من الأزل وإنما تأخر ظهورها، لأن ذلك التأخر من جملتها لأنها تأخرت وقدرت هكذا، بل لا تأخر في الحقيقة ولا تقدم في الأزل، وإنما أشياء مفروضة مقدرة لها مبدأ ومنتهى. والحق تعالى متجلي بذاته لذاته أزلاً وأبداً. وتلك الأشياء المفروضة لما ابتدأت ابتديت وعندما افتوتحت افتتحت ولا قبل لها، لأن القبل من عوارض الزمان، والزمان من جملة الأكوان، فالحق تعالى قبل تلك الأشياء المفروضة فلا قبل وهو معها بلا معية وبعدها بلا بعدية، فهي بالنسبة إليه تعالى وهو هو لا تغير ولا تغيرت، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فإذا أضفت تلك الأشياء المفروضة المقدرة إلى الوجود الحق الصرف الذي لا فرض فيه ولا تقدير ظهرت تلك الأشياء المفروضة وجدت وبطن فيها ذلك الوجود الحق من غير ظرفية ولا مقابلة ولا مشابهة، بل هو هو وهي هي فيقال: ظهر الحق بظهور آثاره.

وعند المحققين: بطن الحق بظهور آثاره، وإذا لم تضف تلك الأشياء المفروضة إلى الوجود الحق تعالى واشتغل السالك به تعالى وزهد في الأكوان كلها قلباً وقالباً بطنت تلك الأشياء المفروضة كما هي كذلك

واستقرت مكانها من العدم الصرف، فظهر الحق تعالى بوجوده الصرف الذي لا فرض فيه ولا تقدير ولا بوجه من الوجوه، فيقال: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسرَاء: 81] في حال ظهوره ولكن زاغت فيه الأبصار بإضافته إلى الوجود الحق تعالى في حالة ظهوره، فلما نبّه السالك لهذه الإضافة زهق الباطل عنده والله تعالى على كل شيء قدير.

ولهذا قال الناظم رضي الله عنه: فما هي ميطت، أي رفعت وكشفت عنك فيها البراقع، أي الحجب التي هي تلك الأشياء المذكورة. ثم لما تأمل تلك الأشياء المفروضة المقدرة التي لا وجود لها وعرفت كيف يصير لها وجوداً بإضافتها إلى الحق تعالى الذي هو نور السمٰوات والأرض كما أخبر تعالى، أي منورهما بمعنى موجدهما بوجوده تعالى. قال: قطعت الورى، أي المخلوقات كلها من ذات نفسك، أي من نفس وجودك قطعة. وقد ثبت في كلامه هذا القاطع وهو الحق تعالى والمقطوع وهو الورى. فالقاطع وجود صرف ولا تقدير ولا تصوير فيه، والمقطوع كله تقادير وتصاوير فقط لا وجود لها إلا بمعية الحق تعالى.

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝﴾ [الأنبياء: 52 - 53]. وهذه التقادير والتصاوير لما كانت من صنع الحق تعالى في الأزل على حسب مقتضيات صفاته القديمة كانت مقطوعة. ثم قال الناظم رضي الله عنه: ولم تك يعني موصولاً بها ولا فصل قاطع بينك وبينها لأنها بالنسبة إليك لا وجود لها وأنت بالنسبة إليها لا وجود لك غير وجودك الذي به صارت موجودة، فكيف يتصور الوصل والقطع والوصل والقطع من جملة الأعراض الحادثة التي هي من جملة تلك الأشياء المذكورة ثم استدرك ذلك بقوله: ولكنها أحكام رتبتك أي الأحكام بمعنى المحكومات. وهي تلك الأشياء المفروضة المقدرة التي هي مظاهر ذاتك في مرائي صفاتك حيث ظهرت بإضافتها إلى وجودك الحق، اقتضت أن يكون لك عليها ألوهية لأنك ربها وصاحبها ومالكها وبك فرضت وتقدرت وبك

ظهرت ووجدت.

ثم أخبر أن تلك الألوهية فيها الجمع للأضداد كالمعطي والمانع والضار والنافع والهادي والمضل ونحو ذلك. ثم خاطب الحق تعالى بقوله: فأنت الورى حقا الخ. وهذا بناء على ما ذكرنا من الإضافة المذكورة ثم أنه شبه الخلق بالثلجة والحق تعالى بالماء الذي هو حقيقة تلك الثلجة ومعنى هذا التشبيه أن الصورة الثلجية كانت قبل ذلك معدومة ولكنها مفروضة مقدرة وهي زائدة على حقيقة الماء بغير شبه لأنها عرض زائد يعتري الماء فيصير ذلك الماء به ثلجاً حتى لو لم يكن الماء لما وجدت تلك الصورة الثلجية فمن قال: إن الماء والثلج شيء واحد أراد من وجه ومن قال: إنهما اثنان أراد من وجه آخر، كما قال الناظم قدس الله سرّه: فما الثلج في تحقيقنا غير مائه الخ، وعلى المغايرة نقول: فلما تجلى الماء على تلك الصورة الثلجية المفروضة ظهرت فيه وبطن الماء فيها، مع أنها لا وجود لها مع الماء وجود استقلال أبداً، لأن وجودها هو وجود الماء، والله تعالى هو الوجود الحق والخلق بمنزلة الصورة الثلجية لا وجود لهم مع الحق تعالى أبداً، وإنما وجود الحق لهم تعالى هو الذي ظهر صير لهم وجوداً كما أن الماء هو الذي صير للصورة الثلجية وجوداً.

وهذا المثال المذكور خبر مطابق للمثل، فإن الماء في ذلك قد تغير حتى ظهرت عليه الصورة الثلجية، وأما الحق تعالى لما ظهرت بوجوده تلك الأشياء المفروضة التي هي الخلق لم يتغير وبقي على ما عليه كان، ولا زاد ولا نقص غير أن الخلق ظهروا به بعد أن لم يكونوا ظاهرين، ثم اختفوا بعد أن كانوا ظاهرين ظهوراً واختفاء مفروض من جملتهم أيضاً، ظهر بالوجود الحق تعالى فافهم هذا المثال وتحفظ من الضلال.

وقوله: ولكن بذوب الثلج إذ لا تبقى تلك الصورة الثلجية فلا يبقى حكمها، فيرفع معها ويبقى الحكم للماء فقط والأمر واقع هكذا، فإن الأشياء ما دامت موجودة ما دام الحكم الشرعي عليها واقعاً، فإذا زالت بظهور الحق

تعالى ورفع تلك الإضافة صار الحكم للحق تعالى على تنوعات حضراته، فيرتفع حكم ويوضع حكم آخر، والحكم الموضوع هو عين الحكم المرفوع، ولكن لا يعرف ذلك إلا الجامعون بين الشريعة والحقيقة، وقليل ما هم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

[فدع التشبيه عن الحق تعالى]

تجمعت الأضداد في واحد البها ... وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

فكل بهاءٍ في ملاحة صورة ... على كُلِّ قَدٍّ شابَه الغُصن يانع

وكل أسوداد في تصافيف طُرَّةٍ ... وَكُلُّ احمرارٍ في الطلايع ناصع

وكل كحيل الطرف يقتل صبَّه ... بماض كسيف الهند حالا مضارع

وكل اسمرارٍ في القوائم كالقنا ... عليه من الشعر الرسيل بدائع

وكل مليح بالملاحة قد زها ... وكل جميل بالمحاسن بارع

وكل لطيف جل أو رق حسنه ... وكل جليل وهو باللطف صادع

محاسن من أنشأ لذلك كله ... فوحد ولا تشرك به فهو واسع

وإياك لا تلفظ بغيرية البها ... فما ثم غير وهو بالحسن بادع

وكل قبيح إن نسبت لحسنه ... أتتك معاني الحسن فيه تسارع

ولا تحسبنَّ الحُسنَ يُنسب وحده ... إليه البها والقبح بالذات راجع

يكمّل نقصان القبيح جمالُه ... فما ثَمَّ نقصانٌ وما ثَمَّ باشع

ويرفع مقدار الوضيع جلالُه ... إذا لاح فيه فهو للوضع رافع

فلا تحتجب عنه لشين بصورة ... فخلفُ حجابِ العينِ للحُسنِ لامع

ثم إنَّه رضي الله عنه لما ذكر ذلك المثال للحق تعالى استقر بلحوق التشبيه بالجناب الإلٰهي فدفعه بقوله: تجمعت الأضداد، يعني أنه تعالى موصوف بما دل عليه كل ضدين في العالم، والأضداد في العالم كثيرة منها: السواد والبياض والأرض والسماء والحسن والقبح والنفع والضر والخير والشر والطول والقصر إلى غير ذلك مما لا يحصى.

ثم قال: وفيه تلاشت، أي ذهبت واضمحلت، لأنها كانت دالة عليه في العالم. فلما زال العالم من بصيرة العارف لإيقانه بالوجود الحق زالت حقائق العالم في كمال تحققها وثبوتها ورجع الحكم إليه تعالى. وأي سراج وأي شمعة تبقى زبالتها منيرة مشرقة في وسط شعاع الشمس في وقت الظهيرة حيث لا غيم يسترها، وإنما تنقلب زبالة كل سراج وشمعة سواداً مظلمة مع أنها في الظلمة مشرقة يملأ نورها الصحراء الواسعة. هذا والزبالة والشمس حادثتان تشبه أحدهما الأخرى، والله أعلا وأجلّ، لأنه القديم والجميع حادثون. وسبحان ربك رب العزّة عما يصفون.

ثم أخبر الناظم قدس الله سرّه: أن الحق تعالى حيث تجمعت فيه الأضداد وتلاشت عنه فهو عنهن ساطع، أي منهن ظاهر كمال الظهور على التنزيه المطلق حيث ذهب عنه جميع أنواع التشابيه. ثم أخذ رضي الله عنه يفصل تلك الأضداد المجتمعة في الحق تعالى المتلاشية عنه جميعها فذكر من مظاهر الملاحة جملة، ثم قال: محاسن من أنشأ لذلك كله، أي هذه محاسن، ثم أمر بالتوحيد له وعدم الشرك به، لأنه واسع وسع جميع ما ذكر وغير ذلك وجميع ما ذكر لا يقيده وبذلك جميع ما لم يذكر بل جميع الأشياء مظاهر حضراته في أنواع تجلياته وهو المطلق سبحانه وتعالى لا يقيده شيء من ذلك، ثم حذرك أن تلفظ بغير الجمال في حق الله تعالى فإن الجلال راجع إلى الجمال كما سنذكره قريباً.

ثم أخبر أن كل قبيح ينسب إلى الحق تعالى يصير حسناً جميلاً ويضمحل قبحه، لأن ذلك القبح كان في بصائر المتأصلين وأبصار الناظرين لا في ذلك الشيء القبيح، فكان ذلك من تجلي اسمه الجليل على ذلك الناظر الذي رأى القبح وبَغَض الأشياء، فالقبح في الناظر لا في المنظور وقبح الناظر ليس بقبح عنده أيضاً في نظره، وإلا لما نسب القبح إلى المنظور، ولكن قبح الناظر في نظر العارف ليس بقبح لأنه من جملة المعارف عند ذلك العارف، فانظر كيف اضمحل القبح حتى أنه زال من العالم بالكلية وبقي الحسن.

وهذا معنى كون الحسن والقبح ينسبان إليه تعالى لرجوعهما إلى شيء واحد وافهم على هذا قوله: يكمل نقصان القبيح جماله، إذ القبح في الناظر الذي أراه الله تعالى ذلك الحسن قبيحاً وقبح الناظر بالنسبة إلى ناظر آخر، ومنشأ ذلك من اختلاف حضرات الحق تعالى، فكل حضرة تقتضي آثاراً تباين الآثار التي تقتضيها الحضرة الأخرى، فالمنتقم يقتضي آثاراً مضادة لآثار المنعم، فكل آثار لهذا الاسم قبيحة عند آثار الاسم الآخر، وحسنة عنده آثاره فقط، وهكذا سائر الأسماء الإلٰهية فإذا نسب كل اسم على حدته إلى الحق تعالى كانت آثار ذلك الاسم حسنة لا قبح فيها البتة، وإنما القبح في الآثار بالنسبة إليها فقط، فإذا نسبت إليه تعالى حسنت كلها لأنها آثار صفاته المختلفة، وهو الموصوف بجميع الصفات المختلفة وحده لا شريك له، وصفاته كلها حسنة لا قبح فيها بوجه من الوجوه، لأنها هي الجمال الإلٰهي، وإن انقسمت إلى جلال وجمال، فإن الجلال هو زائد الجمال، والكل جمال، ولكن جمال عالي وجمال أعلى، وهذا التفاوت في جمال الحق تعالى راجع إلى ما يظهر من الآثار، فالآثار منها ما هو مظهر للجمال الأعلى بعض إظهار، فيقال في الظاهر به جمال عالي، ومنها ما هو مظهر للجمال الأعلى أكثر إظهاراً من الأول، فيقال في الظاهرية جمال أعلى، فيسمى الأول الجمال والثاني: الجلال والكل جمال أعلى، فافهم والله يتولى هداك.

ثم حذرك أن تحتجب عنه تعالى بصورة لأجل شين ظهر لك في تلك الصورة، فإن حجاب العين الباصرة منك، والحجاب هو تلك الصورة التي فيها الشين من خلفها، لامع الحسن الحقيقي الإلٰهي، فإياك أن تحتجب عنه به، فإنه بتمامه في كل صورة من صور الأكوان، إذ لا يتجرأ والله ولي التوفيق.

[التجليات الإلهية]

وأطلق عنان الحق في كل ما ترى ... فتلك تجليات من هو صانع

فقد خلق الأرضين بالحق والسما ... كذا جاء في القرآن إذ أنت سامع

وما الحقُّ إلا الله لا شيء غيره — فشم شذاه فهو في الخلق ضايع

وشاهده حقاً فيك منك فإنه — هو أنيتك[1] اللاتي بها أنت يانع

وفي أينما حقاً تولوا وجوهكم — فثمة وجه الله هل من يطالع

فبع منك نفساً للإله وكنهُ إذ — تكون كما إن لم تكن وهو صادع

ودع عنك أوصافاً بها كنت عارفاً — لنفسك فيها للإله ودائع

وشاهد بوصف الحق نفسك أنت هو — ولا تلتبس للحق ما أنت خالع

وكن باليقين الحق للخلق جاحداً — وجمعك صله إنَّ فرقك قاطع

ولا تنحصر بالاسم فالرسم دارس — ولا تفتقر للعين فالعين تابع

وإياك جزماً لا يهولك أمرها — فما نالها إلا الشجاع المقارع

حنانيك واحذر من تأدُّبِ جاهل — فيا رُبَّ آدابٍ لقوم قواطع

حيث تقرر لك أن الحسن والقبح ينسبان إلى الحق تعالى من جهة تجليه في حضرات صفاته الجمالية والجلالية، وتقرر لك أن الجميع حسن، وأن القبح راجع إلى الحسن، فأطلق حينئذٍ عنانك في كل شيء تراه أي تدرك بالحواس وبالعقل، فإن جميع ذلك تجليات من هو صانع، أي تجليات الإلٰه الذي هو خالق لجميع هذه الأشياء المحسوسة والمعقولة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73] فإنه تعالى هو الذي خلقت به السمٰوات والأرض، فالسمٰوات والأرض مخلوقة، والحق هو الخالق وهي تغيرت من العدم إلى الوجود حيث خلقها، والحق هو الذي خلقها به، أعني هو تعالى لم يتغير عما عليه كان قبل خلق الأكوان لأنه واجب والواجب لا يتغير، وهي ممكنة والممكن متغير، وحيث كان الأمر كذلك فما الخلق من حيث الظهور والتأثير إلا الله تعالى لا شيء غيره، وأما من حيث التصورات الظاهرة والباطنة والتغيرات، فهو الخلق.

ولهذا قال: فشم شذاه، أي رائحته فهو في الخلق ضايع، أي فائح

(1) وفي نسخة [هويتك].

والتصورات والتغيرات متلاشية من بصيرة العارف في مقام الجمع ثابتة في مقام الفرق، فما الخلق إلا الحق عند الجامع، والخلق غير الحق عند الفارق، والكامل عارف للجهتين متحقق بالمقامين، ولهذا قال: وشاهده أي شاهد الحق تعالى أنت فيك من حيث ظهورك، وتأثيرك منك من حيث شهودك نفسك متصوراً متغيراً، حتى تكون كاملاً تشهد رباً وعبداً، فإنه تعالى هو أنيتك التي أنت يانع بها أي مستوي ناضج متحرك ساكن فاعل ما تريد عالم بما هو كائن قادر على أفعالك الاختيارية. وتلك الهوية هي هوية الحق تعالى على ما هي عليه من الأزل ظهرت فيك بآثار صفاتها من حيث هويتك الأخرى التي أنت بها متصور في باطنك وظاهرك متغير في جميع شؤونك، وهذه الهوية هي الحادثة الخارجة من العدم التي تعبر عنها أنت في حال غفلتك وانحجابك عن الحق تعالى بقولك: أنا، وتلك الهوية التي تعبر عنها في حال يقظتك وكشفك بقولك أنا ولا حلول لإحدى الهويتين في الأخرى، لأن الهوية الثانية لا وجود لها مع الأولى، فكيف يحل ما له وجود فيما لا وجودَ له فما له وجود، ولا اتحاد لإحداهما بالأخرى أيضاً كما ذكرنا، فإن المعدوم كيف يتحد بالموجود؟! وإنما حيث وقع الاتحاد في كلام المحققين من أهل الله تعالى فمرادهم به ذهاب الهوية الثانية بالكلية من بصيرة العارف ورجوع الأمر كله إلى الهوية الأولى، فكأنهم قالوا: إن الهوية الثانية حيث اضمحلت وتلاشت اتحدت مع الهوية الأولى، يعني رجع الأمر إلى هوية واحدة هي الهوية الأولى، من قبيل قول القائل في المعرفة: أن يفني ما لم يكن ويبقى ما لم يزل. وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 115]، أي كل شيء تتوجه إليه حواسكم وعقولكم ثمة وجه الله، أي هناك توجه من صفات الله تعالى على إيجاد ذلك الشيء وإبقائه وتغيره، فالله تعالى له توجهات بعدد كل شيء، فهو الذي يواجه كل شيء لا من جهة من الجهات بل الجهات كلها من جملة الأشياء التي يواجهها تعالى، فكل هو أثر تلك المواجهة، وتلك المواجهة هي تجلي الحق تعالى على كل شيء، والأشياء كلها أمور مفروضة مقدرة بمقادير معلومات له تعالى ولا وجود لها بالنسبة إليه

تعالى أبداً، وتجليه عليها أزلاً وأبداً، وإنما إذا أضيفت إليه تعالى ونظر إليها الناظر من حيث هو تعالى نسب إليها الناظر الوجود الذي للحق تعالى، فإذا تحقق الناظر في نظره عرف أنها على ما هي عليه والحق تعالى على ما هو عليه والناظر ونظره من جملة تلك الأشياء وإلى الله تصير الأمور.

وقال الناظم رضي الله عنه: فبع منك نفساً، أي بع نفسك للحق تعالى، بمعنى أرجع وجودها إليه تعالى، وأرجع تعينها من حيث حدودها إلى العدم، وكن هو من حيث الموجود المنزه عن معقولك ومحسوسك، وكنت أنت من حيث معقولك ومحسوسك، فتصير أنت من جيث هو موجود، وأنت من حيث أنت معدوم.

ثم قال: ودع عنك أوصافاً الخ، أي أترك أوصافك التي أنت موصوف بها عند نفسك من وجودك وحياتك وقدرتك وإرادتك ونحو ذلك، فإن فيها ودائع للحق تعالى.

ثم بين تلك الودائع بقوله: وشاهد بوصف الحق نفسك أنت هو، أي وشاهد بكل صفة منك صفة منه فامح صفتك وأثبت صفته، وهكذا واحذر أن تلتبس عليك بنفسك، لأن نفسك حجاب نفسه، فامح نفسك تشهد نفسه، امح التشبيه تشهد التنزيه، امح الفاني تشهد الباقي.

ثم إنك إذا نظرت إلى من سواك من الخلق، فلا تنظرهم بعين الإلتباس التي كنت تنظر نفسك بها، بل اشهدهم هو كما شهدت نفسك هو، بعد محوهم ومحو نفسك من عين بصيرتك، التي هو الحق بعد محو تعينها الخاص.

ثم قال: وكن باليقين الحق الخ، يعني ثم تحقق بذلك كله واجحد الخلق من حيث الوجود الحق تعالى، وإن أثبتهم من حيث هم لا معه تعالى لا يضرك.

ثم قال: ولا تنحصر بالاسم، أي لا تحصر وجودك في حضرات اسم من

الأسماء ولا تقيد نفسك بحال من الأحوال ولا مقام من المقامات، فإن رسمك الذي شهدت به ذلك الاسم دارس زائل غير متحقق الوجود والثبوت.

ثم قال: ولا تفتقر للعين، أي لعينك وذاتك بحيث تبقى مشغوفاً بنفسك من حيث شهودك بها ربك، فإن عينك تابعة لتجلي الأسماء الإلٰهية لا متبوعة لذلك التجلي، وذلك لأن التجلي أول ما تصدر عنه عينك وذاتك، ثم تصدر عنه بقية أحوالك.

ثم قال: وإياك جزماً، أي قطعاً من غير شبهة لا يهلكك أي لا يخيفك ويعظم عندك أمرها، أي أمر هذه الحقيقة بحيث يكون ذلك سبباً لوقوفك عن طلبها، فما نالها، أي حصل على التحقق بها إلا الشجاع المقارع للأمور الصعبة، المقدام على حروب النفس والهوى والشيطان. ثم حذرك من تأدب الجاهل، فإن أدبه قاطع عن الله تعالى، كمن يترك الاشتغال بهذا العلم ومخالطة أهله مخافة الوقوع في عقائده، فإن هذا الجاهل الذي هذا عمله لم يخف أن يكون الزلل في اعتقاده موجوداً من قبل بل هو في الزلل بيقين حيث لم يظهر منه الرغبة في الاشتغال بأشرف علم وأهمه، ولم يخالط أشرف العلماء وأفهمهم المشتغلين بالله تعالى، وهل شيء أشرف من هذه الخصلة السنية، ولكن أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]:

وكن ناظراً في القلب صورة حسنه	على هيئة المنقوش يظهر طابع
فقد صح في متن الحديث. تخلقوا	بأخلاقه ما للحقيقة مانع
فها هو سمع بل لسان أجل يدٌ	لنا هكذا بالنقل أخبر شارع
فَعَمَّ قوانا والجوارح كونه	لساناً وسمعاً ثم رجلاً تسارع
ولسنا سوى هذي الجوارح والقوى	هو الكل منّا ما لقولي دافع
ويكفيك ما قد جاء في الخلق أنه	على صورة الرحمٰن آدم واقع

لا شك أن جميع الأعمال الإنسانية وسائر القوى المنبثة في جسم الإنسان أعلاه وأسفله كل ذلك خارج من القلب فالقلب موضع جميع هذه الأشياء كلها على اختلافها وتنوعها ومنه صدورها على تباينها وتضادها، منها القوة

الحلمية والقوة النفسية ونحو ذلك. وهذه هيئة المنقوش في القلب التي هي مطبوعة فيه وهي صورة حسن الحق تعالى، لأنها صورة جميع صفاته تعالى وأسمائه وهي آثار تلك، والأثر يدل على المؤثر. وقد استدل على ذلك بما صح في الحديث قال ﷺ: «لله مائة خلق وسبعة عشر خلقاً من آتاه بخلق منها دخل الجنة» خرجه الأسيوطي في الجامع الصغير والتخلق بأخلاق الله تعالى هو الاتصاف بذلك بحيث يقابل كل خلق منها بخلق إلٰهي ويتبدل الحرص منه إلى الخير والبخل إلى منع الشر والحسد إلى الغبطة وتذهب الأخلاق السيئة وتأتي الأخلاق الحسنة كما سئل الجنيد رضي الله عنه عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه، أي هو متخلق بأخلاق ربه حتى كأنه ربه وليس هو ربه. وقال ﷺ عن الله تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[1] الخ.

وقوله: الذي يسمع به، دفع به لتوهم أنه تعالى نفس السمع لا بمعنى الجارحة أو القوة المودعة بل هو وراء ذلك كذلك البواقي الواردة في الحديث.

ولا شك أن الإنسان هو مجموع هذه الجوارح والقوى والحق تعالى عين ذلك بمعنى أنه عين المؤثر من ذلك كله لا عين ذلك نفسه، فافهم هذا فإنه مراد الناظم رضي الله عنه: هو الكل منا الخ.

ثم أيد ذلك فقال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[2]. وفي رواية: «خلق

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى، حديث رقم (6137) [5/ 2384]. ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله تعالى. . .، حديث رقم (347) [2/ 58]. ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء السلام، حديث رقم (5873) [5/ 2299] ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر وصف آدم حيث خلقه الله جل وعلا، حديث رقم (6162) [14/ 33] ورواه غيرهما.

(3) رواه الدارقطني في الصفات، حديث رقم (48) [1/ 37] وأورده النووي في شرحه على صحيح مسلم، باب النهي عن ضرب الوجه، [16/ 166].

آدم على صورة الرحمٰن»[1] وأشار الناظم قدس الله سرّه إلى الرواية الثانية لعدم احتمالها على ما تحتمل الأولى من إرجاع الضمير إلى آدم عليه السلام، ومعنى خلق آدم على صورة الرحمٰن ما ذكرنا من أن الحق تعالى هو جميع ما يؤثر من الإنسان ظاهراً وباطناً، والإنسان هو صورة ذلك المؤثر من حيث الباطن والظاهر في هذا العالم الحادث:

ولو لم يكن في وجه آدم نوره(*) ... لما سجد الأملاك وهي خواضع
ولو شاهدت عينٌ لإبليس وجهه ... على آدمٍ لم يعصِ وهو مُطاوع
ولكن جرى المقدور فهو على عمى ... عن العين إذ حالت هناك موانع
فلا تك من إبليس في شبه سترة(**) ... ودع قيده العقلي فالعقل رادع
وغص في بحر الاتحاد منزهاً ... عن المزج بالأغيار إن أنت شاجع
وإياك والتنزيه فهو مقيد ... وإياك والتشبيه فهو مخادع
وشبّههُ في تنزيه سبحات قدسه ... ونزهه في تشبيه ما هو صانع
وقل هو ذا بل غيره وهو غير ما ... عرفت وعين العلم فالحق شائع
ولا تك محجوباً برؤية حسنه ... عن الذات أنت الذات أنت المجامع
فعينك شاهدها بمحتد أصلها ... فإن عليها للجمال لوامع
أنيّتك اللاتي هي القصدُ والمنا ... بها الأمر مرموزٌ وحسنك بارع
ونفسك تحوي للحقيقة كلَّ ما ... أشرت بجد القول ما أنا خادع
تَهَنَّ بها واعرف حقيقتها فما ... كعرفانها شيء لذاتك نافع
فحقق وكن حقاً فأنت حقيقة ... وخلف حجاب الكون للنور ساطع
ولا تطلبن فيه الدليل فإنه ... وراء كتاب العقل تلك الوقائع
ولكن بإيمان وحسن تتبع ... إذا قمت جاءتك الأمور توابع
فإن قيدتك النفس فاطلق عنانها ... وسر معها حتى تهون الوقائع

(*) وفي نسخة [ولو لم تكن في وجه آدم عينه].
(**) ورد في نسخة [في شبه سيرة].

ويرهن لها التحقيق عقداً مؤيداً بنقل به جاءت إليك الشرائع

وثم أصول في الطريق لأهله وَهُنَّ إلى سبيل النجاة ذرائع

تمسك بها تنجو وزن كل وارد بقسطاسها عدلاً فَثَمَّ قواطع

ودع ما تراه مال عن حدِّ عدلها إلى أن تفاجئك الشموس الطوالع

فذاك سبيلي رده إن تُرِدِ العلا ولا تعدُ عنه تعتريك القواطع

مراده بوجه آدم: كل جزء من آدم روحاني أو جسماني باعتبار أن آدم نسخة جميع العالم الروحاني والجسماني على معنى أن كل جزء روحاني منه يقابل كل جزء روحاني من عالم الملكوت، وكل جزء جسماني منه يقابل كل جزء من عالم الملك، وكل قوة باطنية منه أو ظاهرية تقابل كل قوة في العالم، وكل عرض منه يقابل كل عرض في العالم، فكان كل جزء منه وجهاً بهذا الاعتبار، وقد ظهر نور الحق تعالى الذي هو نور محمد ﷺ من حيث ظهوره في هذا العالم الحادث في وجه آدم، أي في كل وجه له عند كل جزء من أجزاء العالم. وقد رأت الملائكة وجه آدم إليهم، فظهر لهم منه نور الحق تعالى فسجدوا له ولم ينحجبوا عنه، وقد انحجب إبليس بوجه آدم الذي إليه فلم ير النور الذي هو ظاهر فيه على حسب ما جرى بذلك قضاء الله تعالى وقدره، فحالت بين إبليس وبين ذلك النور موانع منها: حجاب التكبر، وحجاب الحسد، وحجاب حبّ الرياسة، وحجاب مدحة النفس، وحجاب دعوى الوجود مع الحق تعالى، وحجاب دعوى كمال المعرفة، وحجاب رؤية النقيصة في الغير ونحو ذلك.

وكلّ هذه الحجب ترجع إلى القيد العقلي والاحتجاج بالمفاهيم التي جرت عادة الله تعالى بخلقها للناظر ببصيرة العقل فاحذر منها يا أيها السالك وتحفظ من القياس العقلي الذي أوقع إبليس في الزيغ والكفر ولا تنظر إلا ببصيرة الإيمان واجعل عقلك تبعاً له فإن العقل إذا تنوّر بأنوار المتابعة الإيمانية صار داعياً إلى الإتباع ورادعاً عن الابتداع.

ثم قال الناظم قدس الله سرّه: وغص في بحار الاتحاد منزهاً عن المزج بالأغيار، يعني ادخل في مقام الاتحاد مع الله تعالى من حيث إنك أنت صورته ظاهراً وباطناً، وهو المؤثر منك في كل حال من أحوالك حتى تصير أنت متبرأ من حولك وقوتك، فلا تأثير لك معه تعالى في حركة ولا سكون وهو متنزه متقدس متباعد عن جميع أعضائك الجسمانية الظاهرة وجميع قواك الروحانية الباطنة المبثوثة فيك، فأنت هو من حيث صدور الآثار عنك من حركة أو سكون في القلب والقالب، وأنت غيره من حيث روحك ونفسك وجسمك ولله در العارف المحقق الشيخ أحمد القشاشي المدني قدس الله سرّه حين قال مواليا:

إن لـم تـرانـي فـحـقـق أنـي رأيـتـك واعلم بأنك لا شيء غير وجهي فيك

يا من تسمى باسم النور في التجليات حقق وجودك لكي تدرك المحرك فيك

وقوله: وإياك والتنزيه الخ. اعلم أن الحق تعالى لما خلق الخلق وقدرهم من الأزل كان له بالنسبة إليهم حضرتان لا بد أن يوصف بهما معاً، لأن مرتبة إطلاقه الذاتي اقتضت ذلك فالأولى حضرة التنزيه عن مشابهة كل ممكن، والثانية حضرة التنزل إلى التأثير الظاهر من كل مؤثر في الخلق المقدرين من الأزل في حضره علمه، فلما ظهر الكون ظهرت الحضرتان الإلٰهيتان القديمتان فوجب وصفه تعالى بهما لكمال إطلاقه فمن نزهه فقط قيده بإحدى الحضرتين القديمتين، وتقييده ينافي كمال إطلاقه وكان زيغاً باطلاً والإيمان تنزيهه في حالة تشبيهه وتشبيهه في حالة تنزيهه فكلما ظهر من العدم شيء مخلوق فقل هذا هو الحق ثم قل: ليس هو الحق وقل الذي علمته هو الحق وليس هو الحق. وقل: هو عين علمي به وليس هو عين علمي به واحذر أن تقتصر على واحدة من ذلك فتكون مقيداً للحق تعالى، والحق تعالى لا يقيده شيء مطلقاً.

ثم قال قدس الله سرّه: فلا تك محجوباً برؤية حسنه الخ، أي لا تشتغل بحضرتيه تعالى القديمتين المذكورتين اللتين هما حسن الحق تعالى وكماله

الأزلي، وانظر إلى ذاته تعالى وابحث عنها من نفسك بعد معرفة مرتبته الصفاتية وتنزيهه المطلق وكماله الحقيقي، فإن نفسك من حيث أن جميع صفاتك منسوبة إليها وجميع أسمائك واقعة عليها وجميع أفعالك صادرة منها هي نفس الحق تعالى على التنزيه المطلق وأما من حيث رجوع صدور هذه الصفات والأسماء والأفعال إليها وتعينها في تشخص جميع ذلك فيها فليست هي الحق تعالى بل هي غيره ثم أمرك بمشاهدة عينك من حيث هي محتد أصلها. فقال: فعينك شاهدها الخ.

ومراده: شهودك عينك من حيث هي مصدر لما ذكرنا، لأن من حيث تشخصها، ثم أمرك بالتحقق في نفسك والإقبال عليها، فإنه لا ينفعك شيء إلا هي، وطالب معرفة الله تعالى من غيرها المعرفة التامة طامع في محال، وهو المنادي من مكان بعيد، ثم أمرك بتوحيدك الله تعالى في الأشياء، لأنه منزه عن مشابهتها فقال: ووحدة في الأشياء فهو منزه الخ. وأخبرك أن الكون حجاب الحق تعالى، والحضرتان اللتان لله تعالى المتقدم ذكرهما الراجعتان إلى حضرة واحدة هي حضرة الإطلاق من خلف حجاب الكون، كنى المصنف رضي الله عنه عن ذلك بالنور الساطع، ثم نهاك أن تطلب على هذا التحقيق المذكور دليلاً عقلياً، فإن ذلك كله وراء العقل، وأمرك أن تتبع الإيمان بجميع ما ورد في الكتاب والسنة، والاسترسال مع حسن الاتباع بحيث أن نفسك إذا قيدتك بحالة من الأحوال. استحسنتها بعقلك، فأطلق عنان النفس ولا تقف عند ذلك الاستحسان العقلي، واتهم عقلك في قصور الإدراك وحسن ظنك بما جاءت به هذه الشريعة المحمدية، واحرص على أن تجعل عقلك مُدركاً لما ورد به الخبر الإلهي، وأقم لنفسك دليلاً شرعياً على كل خاطر أو عمل، وأيّد بذلك دليلك العقلي الذي أقمته عند نفسك.

ثم قال رضي الله عنه: وثم أصول في الطريق الخ، أي لا بد هناك من أصول يبتني عليها طريق الله تعالى عند أهله، وهي ذرائع ووسائل إلى النجاة من مسالك هذا الطريق، وكل من سلكه بغير هذه الأصول ضل وهوى وكفر

وزاغ ووقع في البعد والطرد من جناب الحق تعالى، وهلك هلاك الأبد ما لم يساعده الجذب الإلٰهي، وتأخذ بيده عناية ربانية، وذلك نادر في بعض الأشخاص في بعض الأزمان.

ومثال ذلك مثال من جاع وعطش ولم يستعمل المأكل والمشرب وطلب من الله تعالى أن يشبعه ويرويه من غير ذلك فإن ذلك محال بحسب العادة الجارية لله تعالى في خلقه، وإن كان ذلك قد يحصل لبعض المعتنين به على طريقة التكريم ولكنه نادر والنادر لا حكم له.

ثم هذه الأصول المذكورة التي لا بد منها هي معرفة الأحكام الاعتقادية التي ذكرها علماء الرسوم استنباط من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ والأحكام العلمية الشرعية كلها عبادات ومعاملات لاحتياج السالك إليها في معاملة الحق تعالى ومع الخلق.

ثم استعمال ذلك كله في وقته المشروع عمله فيه من غير تأخر وانتقاد الخواطر بعد معرفتها ومعرفة أنواعها، وهي أصل عظيم في طريق الله تعالى، وبيان انتقادها إنما يكون بعرضها على القانون الشرعي فما قبله منها الشرع فهو مقبول، وما رده فهو مردود، ومن لا يعرف الشرع كله كيف يعرف الخواطر، ولا بد من معرفة الأخلاق الحسنة كالتقوى والزهد والورع ونحو ذلك واستعمالها، ومعرفة الأخلاق السيئة كالحسد والحرص والرياء ونحوها واجتنابها، ثم الدوام على ذلك من غير تحول عنه ومطالعة مواجيد العارفين من أهل الكمال والاقتباس من أنوارهم والمشي على طريقهم مع محبتهم وتحسين الظن بهم وبكلامهم نثراً ونظماً وإساءة الظن بنفسه إذا لم يفهم شيئاً من مواجيدهم الإيمانية لكمالهم ونقصانه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم إنَّ الناظم رضي الله عنه أوصى بالمحافظة على هذه الأصول المذكورة وباستعمالها في كل موطن وهي مشروعة بباقية الأبيات الثلاثة ومعناها واضح وبالله التوفيق.

[وصايا للسالك]

ثم قال:

وإياك فاصبر لا تَمَلَّ فإنما ... بصبر الفتى جاءت إليه المطامع

وَهَوِّن على النفس ارتكاباً لهولها ... فغير مُحب من دهته الفجائع

ورد كل حوض للردى فيه مورداً ... وَرُدَّ إذا ما العقل جاء يدافع

وشمر ببذل النصح ساق عزيمة ... على قدم الإقدام فالعجز مانع

ودع عنك علَّ وعسى ولربما ... وسوف إذا نوديت قمت تسارع

فليس لنفس غير حالة وقتها ... وقد فات ماضيها وغاب المضارع

وجدد مع الأنفاس صدق إرادة ... وداوم على الإقبال ما أنت تابع

وجرع حشاك السُّمَّ في طاعة الهوى ... فما خاب من للسم في الحب جارع

وعدَّ على اللحظات أنفاسك التي ... على غفلات قد صرن زوامع

وَغُضَّ عن الآلام جفن مُطالع ... إلى تعب في الحب نفس تقارع

ولا تنتظر أيام صحتك التي ... تمنيك نفس فالأماني خدائع

وسر فوق نيران الغرام مهرولاً ... إليها ففي قصد الغرام مصارع

فكل البَلاء إن خضته في هوانها ... هواناً فلا لسوى عليك صنائع

وإن شبَّ نار النفس يوماً ملالها ... فصُبَّ سحاباً بالتصبُّر هامع

وإن خاطبتك النفس يوماً برجعة ... فطفف لها كأساً من السم ناقع

وعاقب وركبها على متن باذل ... بما هو فيما هالها متدافع

وجرد لها من غمد عزمك صارما ... يبت التواني للملائق قاطع

والبس سرابيل الخلاعة خالعاً ... ثياب الغنى تخلع عليك خلائع

وقم وأقِم حربا على النفس حاذرا ... فما موتها للآمنين مُخادع

ودع عنك آمالاً فكم من مؤمل ... لشوم هوى آماله العمر ضائع

وحاسب على اللحظات قبلك حافظاً ... له عن حديث النفس فهو شنائع

واضبط لها الإحساس فيه مراقباً ... فإن لنقش الحس في النفس طابع

ذكر في هذه الأبيات جملة من الوصية للسالك في طريق الله تعالى، منها: أمره بالصبر وعدم الملل في مكابدة المجاهدة الشرعية على حسب ما قدمناه من الأصول. ومنها: تهوين الأهوال العظيمة على النفس في اقتحام مشقات الطريق. ومنها: الإقدام على المهالك في تحصيل المطلوب والإعراض عن نهي العقل وتدبيره في التثبط عن ذلك. ومنها: ترك التعلل بلعل وعسى وربما وسوف، فلا يقول لعل الفراغ من الاشتغال يحصل إلي فاسلك فارغاً من الأغيار أو يقول عسى يشير إلى السلوك بمعونة الله تعالى فأنا منتظر ذلك السلوك، أو يقول ربما أجد قدرة على السلوك في الزمان المستقبل والآن لا أجد ذلك، أو يقول: سوف أجد قدرة على ذلك إذا طال بي الزمان، فإن هذا كله تعليل النفس بالمحال كما قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 93] فإن هذه الآية وإن كان نزولها في قوم مخصوصين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، فإننا لا ننكر ذلك، وعلى هذا جميع ما نذكره من الآيات ونستشهد به، ولكن مرادنا إشارة الآية إلى المعنى الذي أردناه وإشارات القرآن لا تحصى.

ثم أخبر أن النفس ليس لها من الأوقات الثلاثة إلا وقتها التي هي فيه، فإن الماضي فات عنها وأفلت من يدها بحيث لا يمكنها استرجاعه لإيقاع طاعة فيه أو استخلاص معصية صدرت، والمستقبل غيب عنها لا تعلم هل تصل إليه أم تنقطع عنه، وأما الحال فهو وقتها الذي يجب عليها عمارته بالطاعة ولو بالتوبة مما صدر منه في الماضي من الذنوب وترك المعصية ولو قصداً لذنب في المستقبل كما يقال: الصوفي ابن وقته. ثم أمر بتحديد الإرادة الصادرة في طلب الحق تعالى مع كل نفس، لأن كل من طلب وجَدَّ وجد، وكُلّ من قرع الباب وَلَجَّ ولج، وأمر بالمداومة والإقبال على ذلك تجرع سهم المهالك في الاسترسال مع محبة الحق تعالى، وأمر بمحاسبة النفس على أوقات الغفلة عن الله تعالى، والإغماض عن الآلام والأتعاب التي يقاسيها السالك في طريق الله تعالى وحذرك من انتظار أيام الصحة التي تمنيك بها

النفس وتخدعك بها، وأمرك باقتحام نيران المحبة الإلٰهية والخوص في بلائها، فإن أوقد الملل والسآمة نار النفس فانظر ببصيرتك وصب على نفسك سحاباً هامعاً من الإيمان بالغيب تطغي بذلك تلك النار، وإن خاطبتك النفس بالرجوع عن طلب الحق تعالى فناولها كأساً من السم الناقع من المجاهدات الشرعية وعاقبها بالصبر على مشقات التكليف ثم ركب نفسك على ظهر باذل يقتحم بها في ما هالها من الأمور العظام وهو الحب الذي به يقدم به صاحبه على كل مهمهة فقر ولا يبالي من شيء، ثم جرد من غمد عزمك سيفاً صارماً تقطع به جميع العوائق التي تعوقك عن مطلوبك والبس ثياب الخلاعة بين إخوانك، ولا تظهر إليهم ما أنت فيه من تقوى الله تعالى والورع والإخلاص، ولا تتميز عنهم في زيادة نافلة تعرف بالمواظبة عليها، فإنك إذا ظهرت بشيء من ذلك بين إخوانك ظهوراً تاماً دخلت عليك نفسك من هذا الباب وتمكن منك الشيطان بسبب ذلك فيوسوس لك أنك خير من غيرك فتحتقر فتهلك. ثم احذر من نفسك على كل حال ولا تأمنها في جميع شؤونك فإن الأمن منها خداع لك.

واحذر من الأمل فإنه بئس العمل وحاسب قلبك على الخطرات ولا تسمح لنفسك بزلة ولا هفوة والزم التوبة على كل حال وتحفظ من حديث النفس فهو أمر شنيع، واضبط لنفسك الإحسان في وقت حديثها مراقباً لذلك، فإن للحس انطباعاً من مرآة نفسك، فإذا رقيت ذلك الانطباع أمكنك أن تجرد نفسك عنه فتنقلب وسوستك إلهاماً ويعود شركك إسلاماً، والله الموفق لا رب غيره.

وورِدك في صبح الهوى ومسائه	أسى وعيون بالدموع هوامع
وقاطع لمن واصلت أيام غفلة	فما واصل الأحباب من لا يقاطع(*)
وجانب جناب الأجنبي لو أنه	لقرب انتساب في المنام مضاجع

(*) ورد في نسخة هذا البيت على النحو التالي:

وقاطع لمن واصلت أيامَ غفلةٍ ... فما واصَل العذّالَ لا مقاطعُ

فللنفس من جلاسها كل نسبة ... ومن خُلّة للقلب تلك الطبائع
ولا تنهمك في القول أو في سماعه ... ولو أن فيه من بلاغ مُصاقع
فكل حديث قيل أو سنقوله ... عن العين في التحقيق للعين رادع
فسر الهوى عن قائليه محجب ... وما القيل للعشاق والقال نافع
ورمز الهوى سرٌّ ومدفنه الحشا ... ودونك والتصريح عنه موانع
وإنّي لمن في الحب يُهدى بهديه ... فأنك لا تهدي من أحببت قانع
ودع عنك دعوى القول في نكتة الهوى ... فراحلة الألفاظ في السير ضالع
ومن دون هناك الاستماع مهالك ... وما كل أذن فيه تلك المسامع

ثم أوصاك أيها السالك في طريق الله تعالى بالمواظبة على الحزن على قلة حظك من ربك وعدم الفرح والسرور بشيء من الدنيا ومن الأعمال والأحوال وبكثرة البكاء على تفويت نصيبك من الحق تعالى.

وأوصاك بمقاطعة أخوان الغفلة الذين كانوا يجالسونك في زمان إعراضك عن الله تعالى، فإن من لم يقاطع الأعداء لا يواصل الأحباب وكيف حالك إذا رآك محبوبك وهو رائيك لا محالة تعتمد إلى أعدائه وتترك الاعتماد عليه، فإذا ينالك منه من المقت، فكيف إذا رآك تعتمد على أعدائه من أهل الغفلة والحجاب، ولا تعتمد عليه تعالى وهو كافيك على كل حال.

وأوصاك أيضاً أن تجتنب صحبة الأجنبي عن هذه الطريقة المعتمد على علومه الرسمية من غير عمل كهؤلاء المغرورين بما يحفظونه من المسائل العلمية طمعاً في الجاه والدنيا والقرب إلى السلطان والامتياز على الأقران علماء اللسان البعداء عن الرحمٰن القرباء إلى الشيطان الذين هم من كثرة إهانة الله تعالى لهم وخذلانهم أوقعهم في إنكار الحقائق الكمالية وأجرى على ألسنتهم وقلوبهم الطعن والاستنقاص في أولياء الله تعالى في كل زمان ومكان لعمى بصائرهم وانطماس قلوبهم بأكل الحرام والشبهات والسكنى في الحرام الشبهات، ولبس الحرام ونكاح الحرام والشبهات، وركوب الحرام

والشبهات مع علمهم بذلك وإصرارهم عليه. ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: 41] وهذا كله فيمن يعلم أحكام الله تعالى ويتحول عن العمل بها.

وأما العامة الذين هم كالأنعام ولا يعرفون إلا التقليد المحض ويخبطون في عقائدهم وأعمالهم خبط عشواء فهم أولى بالاجتناب، اللّهم إلا أن تجد قلب بعضهم مقبلاً عليك طالباً للاسترشاد وحريصاً على الإذعان إلى الحق إذا ظهر له معتقد الخير في طريقك الذي أنت سائر فيه، فصاحبه مقدار ما تعينه على ما شاء في معرفة ربه وعمله وأنزل إلى عقله في الكلام. ولا تكلفه أن يصعد إلى عقلك فربما كلفته ما لا يطيق فيهلكك ولا تشعر به أنت وتوكل على الله تعالى في جميع ذلك وإنما أمرك باجتناب هؤلاء لأنك في سبيل الترقي. وقولهم وعملهم وقوف بك وتدلي إلى مقام الفرق وذلك رجوع وانقطاع عن الله تعالى، وقولك وعملك غير مسلم عندهم لانطماس بصائرهم عن إدراكه وعدم التواضع لك في نفوسهم حتى سلموا لك حالك ويؤمنوا بما آمنت به إيماناً بالغيب لدعواهم في نفوسهم كمال المعرفة والاطلاع على دقائق الكتاب والسنة وإن كانوا عارين عن جميع ذلك فإن هذا من شأن النفوس التي لم تزل، فاعذرهم في غيهم وإن لم يعذروك في رشادك فلك ثوابهم، وعليهم عقابك إن لم تقف عنهم لاحتقارهم لك ولو في قلوبهم وتعظيمك لهم ولو بلسانك فإنهم مظاهر جلال الرب، كما أن أمثالك مظاهر جماله، والرب معظم على كل حال، فافهم الأقوال ولا تكن من النساء الذين هم أصحاب النفوس، وكن من أصحاب الأرواح الذين هم الرجال.

ثم أوصاك أيضاً أن لا تشتغل بالإنشاء واستماع القوّالين أرباب النغمات، ولو كان شعرهم الذي ينشدونه من أبلغ الشعر وأعذبه، فإن ذلك حاجب وأرباب البدايات عن معرفة الحق تعالى، وليس فيه إذن إلا لمن صارت حركته كحركة المرتعش حيث لم تبق لنفسه عليه حركة فإنه ينتفع به، وأما من لم يكن له كذلك، فالأولى له تركه لأنه يعوقه عن قطع مسافة نفسه في سيره

إلى ربه، اللّهم إلا أن يسمع بغتة من غير قصد ولا اتهماك بذلك، فليكن متحفظاً على نفسه في ذلك الوقت، ويرجع إلى التقوى في خطرات السوء، فيكون مجاهداً لنفسه فله أجر المجاهد ولكن لا انتفاع بذلك فيما هو بصدده، لأن ذلك من العبادات الجسمانية لا الروحانية.

واعلم أيها السالك أن حقيقة السر الإلٰهي محجوب عن كل من نطق به، فكيف لا يكون محجوباً عن السامع له؟ والناطق أقرب إليه من السامع، ولهذا فاض فيه، فطفح منه، ولكن لما كان الحق تعالى يوصف بالظهور والبطون من وجه واحد بطن في عين ظهوره فانحجب عمن ظهر له وهو السر وهوالجهر معاً، فلا يصير جهراً فقط ولا يصير سراً فقط.

ثم أخبر أنه كنز وأن الحشا مدفنه وأن التصريح به موانع عليه وأرصاد له وطلاسم أبلغ من الكتمان، فإن المكتوم قابل للتصريح به ومتهيىء لذلك فخفاؤه قليل. وأما المصرح به فليس قابلاً للتصريح به ثانياً لا سيما إذا بلوغ لعل بولغ في التصريح وليس متهيئاً لذلك فكان خفاؤه أكثر، لأن النفوس طالبة لغيره عند التصريح به ولا غير له فطلب غيره محال، لا سيما وكل نفس تطلبه على صفة مخصوصة اقتضتها طبيعتها فهي طامعة في حصول ذلك وهو محال إلا إذا رجعت عن طلبها وفهمت الموجود وزهدت في المفقود. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين.

ثم أخبر أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] فيه كفاية وأبلغ وعظاً لمن أراد أن يهدي من أضل الله، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، وإن قدرت على أن تسمع الآذان الظاهرة يا أيها الظاهر فلا تقدر أن تسمع القلوب الباطنة، فإنك لست الباطن والله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور. وأمرك بترك القول على قبول الدعوى وهو القول بالنفس فإن الألفاظ كليلة ضعيفة عن حمل المعاني الإلٰهية، وأما القول بالله فليس هو قولك فإنه كمال والله يسمع من يشاء، بخلاف القول بالنفس فهو نقصان ولا تقدر النفس أن تسمع به غير ألفاظه ومن دون ذلك المهالك

الدنيوية والأخروية، وليس كل الآذان تسمع بالحق تعالى، فإن من سمع به تعالى نجى ومن سمع نفسه هلك، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: 21] غير نفوسهم بنفوسهم هذا إنذاراً من الله تعالى لعباده والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وسر بالهوى بالروح واصغ إلى الهوا ... لتسمع منه سر ما أنت والع
ومن دون هذاك السماع مهالك ... وما كل أذن فيه تلك المسامع
فشمر ولذ بالأولياء فإنهم ... لهم من كتاب الله تلك الوقائع
هم الذخر للملهوف والكنز للرجا ... ومنهم ينال الصب ما هو طامع
بهم يهتدي للعين من ضل في العمى ... لهم يجذب العشاق والربع شاسع
هم السول والمطلوب والقصد والمنى ... واسمهم للصب في الحب شافع
هم الناس فالزم إن عرفت طريقهم ... ففيهم لضر العالمين منافع
فإن جهلوا فانظر بحسن عقيدة ... إلى كل من تلقاه بالفقر ضارع
وحافظ مواثيق الإرادة قائما ... بشرع الهوى إن أنت في الحب شارع
ولا تهملن ذكر الأحبة لمحة ... وداوم خلاف النفس فهي تتابع
وقم واستقم في الحب لا تخش ضلة ... فميل الفتى عما يحاول رادع
وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا ... إلى شيخ حقٍّ في الحقيقة بارع
فقم في رضاه واتبع مراده ... ودع كلَّ ما من قبل كنت تصانع
وكن عنده كالميت عند مغسل ... يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره ... عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له مهما تراه ولو يكن ... على غير مشروع فثم مخادع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية ... بقتل الغلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره ... وسل حساماً للمحاجج قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه ... كذلك علم القوم فيه بدائع

مراده: أمرك بالسير في محبة الله تعالى بالروح لا بالنفس لأن الروح

شريفة ومقاصدها حسنة جميلة دائماً والنفس فيه خسيسة ومقاصدها سيئة قبيحة دائماً، فربما اقتحمت بالسائر في المهالك الردية من حيث لا يشعر بها بخلاف الروح، وتدخل به كل مدخل صدق وتخرج به كل مخرج فيسير بها محمولاً حاملاً. وهذا الفرق بينهما وبين النفس لمن خفيت عليه، فإن السائر بالنفس حاملاً محمولاً.

ثم أمرك أن تصغي إلى محبة الحق تعالى لتسمع سرها وهو الحق تعالى فتفهم نطق الوجود الذي هو تسبيحه بلسان الجمع المحمدي. ثم أمرك أن تلوذ بجناب أولياء الله تعالى إذا ظفرت بهم وتخدمهم بالتقوى والإخلاص والمحبة والإطاعة والاحترام على كل حال، فإن بهم تكشف لك حقائق الموجودات وينحل لك كل مشكل، ويذهب عنك كل زيغ وجهل وضلال، وتدرك به درجة اليقين، وتحصل على زبدة الدين، فالزم طريقهم وسر على سيرهم إن عرفتهم، وتفضل الله تعالى عليك بمعرفتهم، فإن أعمى بصيرتك عنهم فإياك أن تنكرهم فإنهم كثيرون في الأرض لا تخلو منهم بلدة من البلاد ولا قرية من القرى في كل زمان على اختلافهم في السلوك والمعرفة الإلٰهية، ولكن الغالب عليه في هذه الأزمان الخفاء الضروري وعدم الظهور لفساد مقاصد أكاثر الناس وخبث نياتهم وسوء ظنهم بمن عرفوه ومن لم يعرفوه، فلو ظهروا لجحدت أحوالهم وأنكرت أعمالهم ونسبوا إلى ما هم بريئون منه ونبزوا بكل قبيحة من كل مغرور في دنياه ودينه بعلمه أو بعمله من خواص هذا الزمان وعوامهم، ولكن الذي يتعين عليك أيها السالك إذا لم تظفر بأولياء الله تعالى أن تحسن عقيدتك في كل من تراه من الفقراء المواظبين على التقوى بحسب قدرتهم، ولا تحتقر أحداً منهم فإن الجميع تحت تصاريف قدرة الحق تعالى، ولأجل عين ألف عين تكرم.

ثم أمرك أن تحافظ على العهود المأخوذة عليك في إرادة الحق تعالى إن كنت مريداً له صادقاً في إرادتك مخلصاً فيها، وأن تقوم بشرع محبة الله تعالى، أي بحقوقها فترضى بالهوان، والذلّ والجوع والعطش والأطمار

الخلقية، والأذى من الخلق، والأوجاع والأسقام، والفقر والفاقة على حسب ما تعلم أن محبوبك أراد لك ذلك كله، فإذا ضجرت نفسك من شيء من ذلك بمقتضى الطبيعة البشرية قُم عليها بروحانيتك وعقلك وازجرها واقهرها على تجرع جميع ذلك، وأكرهها على الرضى به ودم في مجاهدتها، فإن ذلك أجر المجاهد واستعن في ذلك كله بالله تعالى متوكلاً عليه والله يتولى هداك.

[الذكر]

ثم أمرك بالمداومة على شرطين:

الشرط الأول: الذكر وهو أن تذكر الله تعالى وأنت مخلص في ذكره عارف بمرتبته التنزيهية الواردة في الكتاب والسنة الخالية من البدع والزيغ على حسب ما قرره علماء الظاهر، وقد شرحت لك في كتاب الأنوار الإلٰهية شرح المقدمة السنوسية فتجري الذكر أولاً على لسانك لا إلٰه إلا الله. ثم إذا نفخت عليك نفخات الجمع ولمعت بوارق الواحدية فاقتصر في ذكرك على قولك الله. ثم إذا تخلصت من أسر الجرم والعرض وانحليت من قيد الزمان والمكان وظهرت بالمستوى الذي سمعت فيه صرير الأقلام بتصاريف الأقدار فقل عند ذلك هُوَ هُوَ حتى تغيب في هويتك وتغوص في بحار الظلمات بإسكندر عزمك الروحاني الذي تولاه الله تعالى بالحفظ والنصرة، فإن خضر سرك يقع في ماء الحياة فيشرب منها فيعيش عيشة الأبد في الراحة والرغد، ويسخر الله تعالى إسكندر عزمك فيبني سد يأجوج ومأجوج أفكارك الردية فلا يصير يخطر لك شيء من ذلك إلا ما يسور ذلك السد المبني والجبل الشامخ من التحقيق فيقع فيهلك، وتبقى كذلك حتى ينفخ في صورك ويأتي وقت ظهورك. وهناك أمور من نتائج الذكر يطول شرحها ولكن قصدنا الاختصار في هذه العجالة.

[تسليك النفس]

والشرط الثاني: تسليك النفس على طريق المخالفة لها على كل حال فإنها

لا تأمر بخير أبداً إلا إذا تأدبت بآداب العقل والرعونة في طبعها لا تزول ومتى خرجت عن حكم العقل عليها تمادت إلى ما هي منطبعة عليه من الشر والفجور فكن من ذلك على حذر ولا تهمل هذين الشرطين فإنهما جناحاك تطير بهما إلى الملكوت الأعلى في كل حين.

ثم أمرك بالقيام والثبات والرسوخ والمداومة والاستقامة في جميع أمورك، وعدم الخوف من الضلال، فإن ميل النفس عن مقاصدها رادع إلى ذلك.

ثم أمرك بمراعاة حقوق الأستاذ إذا ظفرت به وأطلعك الله تعالى عليه وذكر من ذلك جملة فقال: أن تقوم في رضاه فلا تسخطه أبداً وتتبع مراده على كل حال ولا تجعل معه إرادة ولا اختيار، وأن تترك جميع ما كنت تضعه قبل من أعمالك طالباً منه أن يأمرك بما يريد هو ويعلم على حسب ما يختار. وأن تكون بين يديه بمنزلة الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء كما أمر الله تعالى الصحابة أن يكونوا مع النبي ﷺ.

وفي الحديث: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

ثم أمرك أن تسلم لأستاذك جميع ما هو عليه من أحواله ولا تعترضه في شيء مطلقاً لأنك ما اخترته أستاذاً لك إلا لاعتقادك فيه المعرفة والعلم الزائد. فإذا اعترضته في شيء فقد نسبته إلى الجهل واستنقصته فلا تفلح من جهته أبداً. واطلب لنفسك تأويلاً لكل ما رأيته منه مخالفاً، فلعل ما فعله يكون مشروعاً وقد خفي عليك لقلة علمك وزيادة علم أستاذك ولا تسأل منه ذلك فربما يشعر منك بالاعتراض عليه فيه فتسقط من عينه وقد أدب الله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ

(1) أورده الإمام الرازي في التفسير الكبير، سورة البقرة، آية 34 [2/ 200] وأورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (1576) [2/ 22] وأورده غيرهما.

أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101] الآية وورثة الأنبياء لهم حظوظ من مقامات الأنبياء وأحوالهم، وكذلك أتباعهم ولا ينبغي لك أن تعتقد في أستاذك العصمة من الذنوب. واعلم أن الذنوب لا تنافي المعرفة فإن الذنوب ابتلاء من الله تعالى للعبد وكل عبد مبتلى لا سيما وفي الحديث: «أشدكم بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1] والابتلاء بما عدي الكفر لا ينقص العبد[2]. قال ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به إلى الجنة يكون نصب عينيه تائباً فاراً حتى يدخل به الجنة»[2] خرجه السيوطي في الجامع الصغير.

وقد ذكرنا في كتابنا «الفتح الرباني» زيادة من هذا المبحث واعتبر في نفسك بما وقع لموسى مع الخضر في اعتراضه على الخضر حتى قال ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لرأى من صاحبه العجب»[3] كما خرجه السيوطي رحمه الله تعالى فإن بتركه الوفاء بالشرط حرم بركة صحبته واستفادة العلم من جهته، فإن الخضر عليه السلام على علم من ربه ما علمه موسى، وموسى على علم ما علمه الخضر، كما ورد في حديث البخاري: فلمّا خطب موسى في بني إسرائيل فقال: لا أعلم مني، أوحى الله إليه أن في مجمع البحرين من هو أعلم منك، يعني من هو على علم لا تعلمه أنت، فسار موسى في طلب العبد الصالح فقال له: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، مع أن علم الخضر في جنب علمه كما قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قصة يحيكها: والله ما علم الخضر في علم موسى إلا كعلم الهدهد في علم سليمان. وذلك لأن موسى نبي مرسل بالإجماع وهو من أولي العزم والخضر مختلف في نبوته وعلى كونه نبياً هو دونه في المرتبة،

---

(1) رواه بنحوه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (119) [1/ 99] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من توطين النفس على تحمل ما يستقبلها من المحن والمصائب، حديث رقم (2900) [7/ 160]. ورواه غيرهما.

(2) خرّجه المتقي الهندي في كنز العمال برقم (10188) [4/ 87] وعزاه إلى ابن المبارك عن الحسن مرسلاً.

(3) رواه أبو داود أول كتاب الحروف والقراءات، حديث رقم (3984) [4/ 33].

ولكن قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل كما وجد عند الهدهد علم الماء الذي تحت الأرض، ولم يوجد عند سليمان عليه السلام حين تفقد الطير لما دخل وقت الصلاة، فقال: مالي لا أرى الهدهد، وقد وجد الهدهد النبأ العظيم الذي جاء به من سبأ، ولم يوجد ذلك عند سليمان عليه السلام، وسليمان أفضل منه من غير شبهة، ومع هذا كله لمّا اعترض موسى عليه السلام على الخضر حرم بركته الموجودة عنده فلم ينلها وقال ﷺ: **«من بلغه عن الله فضيلة فلم يصدق بها لم ينلها»**[1] خرجه السيوطي[1] في الجامع الصغير وذلك أن الخضر عليه السلام أشار لموسى عليه السلام ثلاثة إشارات:

الأولى: خرق السفينة أشار بها إلى خرق سفينة الطبيعة البسيطة والمركبة بحيث تغرق أهلها في بحر الروحانيات.

والثانية: قتل الغلام أشار بها إلى قتل غلام النفس يشدخ رأسه بحجر العزم الروحاني.

والثالثة: إقامة الجدار أشار بها إلى إقامة جدار الأحكام الإلٰهية الواردة على ألسنة المرسلين وذلك عين الكمال، وهو الجمع بين الحقيقة والشريعة وهو المطلوب، فإن ذلك الجدار تحته كنز المعارف الإلٰهية لغلامي العقل والإيمان اليتيمين الذين هما لا أب لهما ولا أم إلا بالعلويات والأمهات السفليات، التحقت بهما فصارت كناية عنهما، فإذا بلغا أشدهما بذلك الالتحاق استخرجا كنزهما وهو الحق تعالى، كما روي في الحديث القدسي: **«كنت كنزاً مخفياً»**[2]، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم أن موسى عليه السلام لما ظهر له الحق بتأويل الخضر ذلك وإقامة الحجج له، اعترف موسى عليه السلام لذلك وأقام له العذر في جميع ما فعل، وكذلك علوم القوم الصوفيين لها معاني عظيمة تخفى على أكبر عالم

---

(1) ورواه أبو يعلى في المسند عن أنس بن مالك، حديث رقم (3443) [6/ 163]. وأورده السيوطي في جامع الأحاديث برقم (21666) [20/ 119] وقال: (رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط عن أنس).

(2) أورد العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

محقق من علماء الرسوم، فكيف على طالب علم، فكيف على عامي جاهل، فيجب احترامها وعدم الخوض فيها لمن لم يستطع أن يفهمها على مقتضى القول كتاب الله تعالى وسنة رسوله وأقوال الصحابة المهتدين.

وقد صنفت فيها رسالة سميتها التنبيه من النوم في حكم مواجيد القوم والله ولي التوفيق والهادي إلى أقوم طريق:

وواظب شهود العلم فيك فإنه	هو الحق والأنوار فيك سواطع
ورق مقام القلب عن نجم ربه	إلى قمر الرحمٰن إذ هو طالع
إلى شمس تحقيق الألوهية رافعاً	إلى ذاته للقدر إن أنت رافع
فللّه خلف الاسم والوصف مظهر	وعنه عيون العالمين هواجع
فليس يرى الرحمٰن إلا بعينه	وذلك حكم في الحقيقة واقع
وإياك لا تستبعد الأمر إنه	قريب على من فيه للحق تابع

إن العلم الذي فيك المنقسم إلى تصور وتصديق حادث فيك من غير شبهة، فاشهد الحق تعالى فيه، ثم اشهد الحق تعالى في شهودك ذلك، فإن الأنوار تسطع فيك وتشرق في شهود ذلك المقام وهو مقام القلب، ثم إنك ترقى منه حتى تخرج من الكون وتدخل في حضرات الصفات الإلٰهية، فترى نجم الرب المشرق على كل شيء فيظهر لك لأنه رب كل شيء فيظهر لك من كل شيء ظهور مؤثر من أثر ومدلول من دليل فترقى منه إلى قرار الرحمٰن المستوي على عرش الوجود كله فيظهر لك ذلك وأنت في مقام الجمع فترى الله كما ترى القمر ليلة البدر وأنت ذلك القمر والقمر لا يظهر إلا في الليل والكون كله ليله، فتكون أنت أثره المظهر له ودليله الحجة عليه في ليلة قدره التي هي خير من ألف شهر، ثم لا تقف عند ذلك وترقى إلى شمس الألوهية التي تحققها، فعند ذلك تنطمس الأنوار كلها وتدخل في غيب الغيب وهو نهاية السير إلى الله وبعده السير في الله ليس عند الغير خير منه وهو مقام الذات وعنده وقف علم القلم. كما قال: فللّه خلف الاسم والوصف مظهر، يعني أن لله تعالى ظهوراً تاماً أتم وأكمل من ظهوره عند القلم الأعلى الذي

هو ترجمة لجميع الكائنات. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات: 180]. ولكن لما كلف الله تعالى كل كائن بقدرته وقبل منه ذلك ورضي منه به على حسب ما جاء به الرسل وأنزلت الكتب بالوحي المستفاد من اللوح والقلم. قال الله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات: 181]، أي ما كان عليهم منا ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: 182] على هذه النعمة التي تفضّل بها الرب تعالى على خلقه إلا أن هذا المظهر الخالص الذي لله تعالى عنه عيون العالمين هواجع، أي نائمون لا يستيقظون له ولا يعرفونه إلا القليل من عباد الله وهم الأولياء الذاتيون وهم ليسوا من العالمين، لأن العالم ما جعل علامة على صانعه وهم لم يجعلوا علامة عليه لخروجهم عن حكم اللوح والقلم، والعالم مقتضى الصفات لا الذات وهم فارقوا الصفات ووقعوا في حضرة الذات من حيث الصفات على وجه خاص لا يخرجهم عن الإمكان، فلا إشارة عندهم إلى الله ولا إيماء لخروجهم عن مقتضى الإشارة فضلاً عن العبارة.

ثم إنَّه بين ذلك بقوله رضي الله عنه: فليس يرى ما ذاك إلا بعينه، أي لا يرى هذا المقام الذاتي المذكور أحد إلا بعين الحق فيرى الحق بعين الحق. وأما عين الكون فهي باطلة بالنسبة إلى الحق تعالى والعين الباطلة لا ترى الحق، وبرهن على ذلك بقوله وذلك حكم في الحقيقة واقع وإياك لا تستبعد الأمر الخ.

لأنه ورد في الحديث: «كنت بصره الذي يبصر به»[1] ومن كان الحق بصره لا يرى إلا الحق لا يرى الباطل أبداً والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ثم إنَّه رضي الله عنه شرع يبين لك ذلك المذكور سلوكاً من نفسه في نفسه بنفسه ترجمة من ربه بربه فقال:

[المقامات والأصول السلوكية]

وها أنا أنبئك عن سبل الهدى ... وأنصح عما قد حوته المشارع

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

أقص حديثاً تم لي من بدايتي ... لنحو انتهائي علّه لك نافع

برزت من النور الإلهي لمعة ... لحكمة ترتيب قضتها البدائع

إلى سقف عرش الله في أفق العلا ... ومنه إلى الكرسي كنت أسارع

إلى القلم الأعلى ولي منه برزة ... إلى اللوح لوح الأمر والحق واسع

إلى الهبا السامي وكنت مكرّماً ... نزلت الهيولى وهي للخلق جامع

هناك تلقتني العناصر حكمة ... ومنها أجتلتني في حماها الطبائع

وأنزلني المقدور في أوج أطلس ... إلى الفلك العالي الذرى وهو تاسع

ومنه هبوطي للكواكب نازلاً ... على فلك كيوان ثمة سابع

فلما نزلت المشتري وهو سادس ... سماء به في السعد للكون تابع

أتيت سما بهرام من بعد هابطاً ... على فلك للشمس والشمس رابع

وفي كرة الزهراء أعني سماءها ... حثثت مطي السير والدار شاسع

على كاتب الأفلاك وهو عطارد ... نزلت وكانت لي هناك مراتع

وبالقمر الباهي نزلت وشرحت ... على الفلك الناري الأثير شرائع

ومنه هوى للأمر في فلك الهوا ... ركائب عزم ما لهنّ موانع

وبالكرة المائية العين إذ سرت ... أضافت ركاب العزم فيها البلاقع

هذا نزول الجسم من عند ربه ... وللروح تنزيل مجاز متابع

وذلك أن الروح في المركز الذي ... لها هي روح الحق فافهم أسامع

فليس لها فيه هبوط منزل ... وليس لها فيه صعود مرافع

ولكنّ في تعيينها بمخصص ... تنزّل عن حكم بأن هو شائع

وذلك للأرواح خلق حقيقة ... وذلك تنزيل لها وقواطع

ففي المثل المفروض منه ترتبت ... مراتبه حتى بدا متناوع(*)

(*) وفي نسخة ورد هذا البيت على النحو التالي:

ففي المثل المشهور وجه تنوعت ... سرائره حتى بدا متناوع

فيبرز في حكم المرآة للورى — على الجرم والمقدار إذ ذاك طابع
فتنويمها ذاك التجلي هو الذي — تسميه روحاً وهو بالنفخ واقع
وإلا فلا اسم له غير ربنا — وليس له إلا الصفات مواضع
تنزه ربي عن حلول بقدسه — وحاشاه ما بالاتحاد تجامع
ومهما تحل الروح جسماً فإنها — لتصوير ذاك الجسم في الصور تابع
ويتبعها في نصبها وارتفاعها — وتتبعه إن جر يوماً طبائع
فإن قويت بالتزكيات رقت به — إلى المركز العالي الذي هو رافع
وإن ضعفت واستقوت النفس والهوى — تكن تبعاً للجسم إذ هو تابع
فتشقى به في سجن طبع وإن رقت — به كان مسعوداً وفي العز راتع

وقد فصل وبيّن رضي الله عنه نزوله من مقام تنزيهه إلى مقام تشبيهه من الحضرة المحمدية وهبوطه من سدرته إلى دحيته أخبر أنه برز من النور الإلٰهي الذي هو الغيب المطلق بحيث لا يصير شهادة أبداً وبروزه من هذا كبروز الظل من الشجرة لم يكن فيها وخرج منها ولا في غيرها وخرج بها وإنما لها الحكم فيه ولا وجود له معها وجوداً مستقلاً ولله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض ثم إنّه لما برز من نور الإلٰه لمعة كان مرتباً ترتيباً بديعاً اقتضته الحكمة الأزلية فهو يتفصل على حسب ذلك الإجمال ويتنوع بمقتضى ذلك الترتيب.

فأول تفصيل وترتيب ظهر من مجمله أن نزل سقف عرش الله حيث سرادقات العزة فكان في ذلك نوراً متمايزاً من نور الحق تعالى تميز أثر من مؤثر ومنفعل من فاعل ولم يكن غير ذلك العرش ولا عينه. ثم نزل ذلك النور إلى الكرسي فلم يكن غير ذلك الكرسي ولا عينه، ثم إلى القلم الأعلى كذلك ثم إلى اللوح المحفوظ كذلك ثم إلى الهبا وهو حضرة الوهم المطلق المعبر عنه مرة بالخيال المطلق وقد بينت الخيال المطلق والمقيد في كتاب الدر

المتين، ثم إلى الهيولى الجامعة للمحسوسات والمعقولات الجرمية والعرضية وهي البسط السليماني الذي سخر لسليمان عليه السلام كما أفادني ذلك بلسان الإشارة بعض الأصحاب من أهل الله.

ثم نزل إلى الهيولى المذكورة تلقته العناصر الأربعة، النار والهواء والماء والتراب وألبسته الطبائع الأربعة ملابسها: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فكان هو عين ذلك كله قبل ظهور عينه وهو غير ذلك كله كدود الخل المتولد من الخل ليست عينه عين الخل ولا غير الخل ونحو ذلك من سائر المواليد.

ثم أخذ الناظم رضي الله عنه يبيّن كيفية تلقي العناصر والطبائع ويدأ بالعلم الطبيعي.

وأخبر أنه أول ما نزل إلى أوج الفلك الأطلس الذي لا نجم فيه وهو سقف الجنة. والحكمة أنه لا نجم فيه لأن أهل الجنة ليس فوقهم غيرهم وتحت هذا الفلك التاسع الفلك الثامن وهو فلك المنازل وهو أرض الجنة وسقف جهنم وفيه منازل مقدرة الكواكب ولا كوكب فيه. ومن تلك المنازل يطلع أهل الجنة على أهل النار وبالعكس ويتخاطبون.

وقد سماه الناظم رضي الله عنه الفلك المكوكب الذي فيه منازل الكواكب، وقد نزل ذلك النور المذكور إلى هذا الفلك على حسب، ثم هبط إلى الفلك السابع وهو فلك كيوان وهو زحل. ثم نزل إلى الفلك السادس وهو فلك المشتري ثم إلى الفلك الخامس وهو فلك بهرام وهو المريخ، ثم إلى الرابع وهو فلك الشمس، ثم إلى الثالث وهو فلك الزهرة، ثم إلى الثاني وهو فلك عطارد كاتب الأفلاك كلها يرسم حروف الكائنات السفليات كلها، ثم إلى الأول وهو فلك القمر، ثم إلى فلك الأثير، ثم إلى فلك الهواء، ثم إلى فلك الماء ثم إلى فلك التراب. وقد انتهى إلى التراب وهذا كله نزول الجسم من عند ربه الحق تعالى نزول أثر من مؤثر ومنفعل من فاعل لا نزول جزء من كل وهبوط من منزلة ومكانة لا هبوط من علو منزل ومكان فافهمه على التنزيه الصرف، وإن لم تستطع فسلمه لقائله ولا تفتري عليه الكذب

بفهمك الخبيث إن ربك لبالمرصاد.

ثم لما ذكر نزول الجسم وكيفية صدوره عن الباري سبحانه وتعالى شرع في ذكر نزول الروح وكيفية صدورها عن الحق تعالى فقال: وللروح تنزيل مجاز، أي ليس بحقيقة، لأن النزول الحقيقي هبوط من علو بعد انفصال من كل وليست الروح جزء من الحق تعالى، لأنها حادثة وهو قديم ولا وجود للحادث مع القديم كما قررناه فيما سبق، فكيف المعدوم يكون جزءاً من الموجود هذا محال، وغاية الأمر أن الله تعالى له حضرتان: حضرة تنزيه على ما هو عليه وما عرف من هذا الوجه ولا يعرف. وحضرة تنزل إلى مرتبة الإيمان والعقل الحادثين معرفة وكلام الأولين والآخرين في الحق تعالى من هذه الحضرة فقط. وهذه الحضرة حضرة التنزل لها التنزيه أيضاً لكن التنزيه الحادث اللائق بها الذي هو مناط التكليف الشرعي. والروح الذي أول ما خلقه الله تعالى وإضافتها إليه وقد نفخ منه في الأجسام المسواة وهو روح الله ومعنى الإضافة أن الله تعالى المتنزل في حضرته الثانية التي بها خلق كل شيء. هذه الروح الكلية الحادثة روحه عندنا ونحن بالنسبة إليه معدومون واللوح المحفوظ المنبعث عنهما جمسه لذلك والمخلوقات كلها الروحانية والجسمانية على اختلاف أجناسها وأنواعها وأشخاصها متولدات عن روحه وجسمه المذكورين على حسب ما هو ظاهر عندنا ونحن معدومون بالنسبة إلى حضرته تعالى.

الأولى: حضرة التنزيه القديم المطلق وهو الحق المخلوق الذي هو المثل كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرُّوم: 27] الآية لا يقدر أحد من المولدات أن يدرك كنهه ويطلع عليه لأنه موصوف بالأعلى أي المنزه عند أهل السمٰوات وأهل الأرض وكل شيء صدر منه تنزيهاً حادثاً صادراً عنه، فكيف يقدر أحد من المولدات أن يدرك الحق تعالى القديم الذي هو الحق المخلوق به، كل شيء جائز في معرفته تعالى ولم يدركه وفي هذا الحق المخلوق الذي ضربه الله تعالى مثلاً له فقال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾

[الحج: 73] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: 57] الآية بسبب تصور هذا الحق المخلوق لمريم وإنتاجه عيسى عليه السلام مثالاً لجميع العالمين افتتنت فرق الضلال وزعموا أن الحق القديم لما أوصلهم إليه سيريهم المنقطع.

وقول الناظم رضي الله عنه: فاسمع أسامع الهمزة للنداء، أي سامع ثم أنه وصف هذا الروح فقال: فليس لها فيه أي في الحق تعالى هبوط منزل، أي هبوط بمعنى انتقال من حيز إلى حيز، وليس لها في الحق تعالى صعود ومواقع بمعنى انتقال من مكان إلى مكان، وإن رد لفظ الترقي والتدلي والتداني والقرب. بل المراد بالتنزل والتخصيص والتعيين الصادر عن حكم إلهي كما هو الشائع في التخصيصات العقلية والحسية للجرم والعرض، ثم إنَّه بين أن هذا التخصيص والتعيين خلق حقيقي من أخلاق الأرواح وهو تنزيلها وهو قواطعها وعوائقها وموانعها.

ثم إنَّه بين المثل المفروض هو هذا الروح المذكور الذي ترتبت فيه جميع المراتب الإلٰهية وتفصلت غاية التفصيل، وهو المثل الأعلى في السمٰوات والأرض كما بيناه فهو قائم مقام المرآة المجلوة الصافية، والحق تعالى القديم متجلي عليه، وأنواع التجليات هي أشخاص الورى العقلية والحسية، وذلك التجلي هو النفخ والمرآة هي الروح المنفوخ منها من كل صورة ظاهرة، ولها ولجميع الأشياء عندنا أرواح منفوخة حتى الأزمان والأماكن والمعاني والمحسوسات.

ثم إنَّه قال رضي الله عنه: وإلا أي وإن لم يكن ذلك الروح هو المنفوخ منه والتجلي هو النفخ فلا اسم له أي لذلك الروح غير ربنا، أي مالكنا ومدبرنا، وليس له أيضاً إلا الصفات الإلٰهية التي هي مقتضيات التجلي الإلٰهي مواضع، أي أجسام مسواة فيها أطواراً كامنة كمون النخلة في النواة مستعدة للنفخ الروحاني فيها حتى يتفصل المجمل ويظهر الكامن. ولهذا تنوعت الأرواح واختلفت على حسب اختلاف الأجسام المسواة فكل جسم له روح

تدبره بما هو كامن فيه، وعلى مقتضى إجماله تفصله وتظهر خفاياه، والأجسام إما نورانية أو ظلمانية وأرواحها تدبرها وتجري على حسب مقتضياتها كما قلت:

[حقيقة الروح]

والروح كالريح إن جازت شذى النطف	تزكوا وتخبث أن مرت على الجيف
وليس تحكم في جسم تكون به	إلا على مقتضى ما فيه فاعترف
وإنما هي من أمر الإلٰه أتت	في جنسه هي من جسم ومن شرف
فتارة في شقاء منه قدره	ربي وطوراً بسعد غير منصرف
فالجأ إلى الله إن رمت النجاة بها	واسلك سبيل ولي التقوى ولا تقف

ثم إن الناظم رضي الله عنه شعر بتوهم الحلول في كلامه فدفع ذلك بقوله: تنزه ربي عن حلول البدن، فإن الحلول من أخبث العقائد وفيه مساواة بين الرب والعبد ولو من وجه وهذا لا يصح أبداً.

ثم قال وحاشاه ما بالاتحاد مواقع، فإن الاتحاد أقبح من الحلول، فإذا امتنع الحلول امتنع الاتحاد بالأولى، وإنما الذي يحل بالجسم هو الروح وربما يتحد به في بعض الكاملين.

ثم أخبر أن الروح إذا حلت في جسم، فإنها ترفع له صورة في صور إسرافيل بسبب ذلك الحلول، وإذا ارتفعت إلى تلك الصورة تبعها الجسم، وإذا جرت الطبائع ذلك الجسم إليها وخفضته تتبعه الروح فتهوي معه، وصعودها به إنما يكون بالتزكي بالأخلاق الملكية العالية وتوقي الأخلاق البهيمية السافلة، وضعفها فيه وتسفلها به إنما يكون باسترسالها في مقتضيات طبعه وهواه فتشقى معه إذا تبعته في ذلك وتحبس في سجن الطبيعة، إما إلى أمد كالعصاة أو لا إلى أمد كالكفار، وإن شرفت به كان لها معه السعادة الأبدية في جوار الملكوت الأعلى بالعز الدائم والله الموفق.

[حقيقة الجسم]

وإن نزول الجسم للخلق في الثرى ... سواه ولكن بعد ذاك تنازع

فمن سبقت لله فيه عناية ... فغير مكوث في التراب مسارع

ومن أبعدته السابقات فإنه ... له بين نبت والتراب تراجع

فقد يك عشبا ثم ترعاه دابة ... ويترب إذ يفنى ويخضر يانع

على قدر تكرار التردد بعده ... لنسي عهوداً بالحما ووقائع

وعند مرور النفس في كل منزل ... سينقش فيها منه طبعاً طبائع

فتظهر نفس المراء كاملة البها ... ومن نسخة الأكوان فيها خلائع

لتذكر بالمشهود غائب أمرها ... فيرجع للأوطان من هو راجع

جرى أشهب الألفاظ في بيانها ... بمضماره حتى علون منافع

سألوي عنان القول نحو مكانه ... لتطلق فيه عن قيود شرائع

فلما نزلت الأرض ماء حياتها ... وأثمر لي أصل هنالك يانع

وكان إذا أنبت حَبٌّ غصونها ... أرزاً فصدق أنني لمطالع

وساق القضا تلك الحبوب فغذّيا ... بها أبواي الأطهران جوامع

وحلَّ مزاج الحب في الجسم مادة ... وتمت لكيموس دمٍ وبخائع

فلمّا دنى آن البروز تجامعا ... بعقد حلال نعم ذاك التجامع

ولما تلاقى من له ماء بمائها ... وأبدع بالترتيب نشوي بادع

وكان اقتضاء النشوء أني روحه ... وتعبير نفخ الروح عن ذاك واقع

فصور شخص باليدين مصوري ... لتطبع بالضدين فيَّ طبائع

وأخرجني من بعد تكميل هيكلي ... إلى العالم الأرض من هو صانع

ففي أول الشهر المحرم حرم ... ظهوري وبالسعد المطارد طالع

لستين مع سبع إلى سبعمائة(*) ... من الهجرة الغرا سقتني المراضع

(*) ورد في نسخة صدر هذا البيت على النحو التالي:

لستين من سبع على سبعمائة

وبعد أن أنهى الكلام على الروح وذكر كيفية إيجادها وتكوينها شرع في بيان الجسم وكيفية تكوينه، فأخبر أن الأجسام كلها متساوية في نزولها إلى التراب أي في تكوينها منه يعني في كونه هو الجزء الغالب فيها، لأن التكوين من الأجزاء الأربعة من شيء واحد أبداً، وإنما يكون من الأجزاء الأربعة التي هي العناصر الأربع: الماء والتراب والهواء والنار فينضم بعض الأجزاء إلى بعض بتعارف روحانيات تلك الأجزاء وهم: النكاح الجمادي. ثم تتوجه على تدبيره الروح الكلي فتدبره بما تقتضيه أجزاؤه فتخلق الأرواح فتخلق الأجسام وتنوع إلى أنواع شتى لا تدخل تحت جنس ولا فصل بسبب عدم تكرار التجليات.

فمن الأجسام من سبقت له من الله تعالى عناية ربانية فانتقل إلى العالم الروحاني والتحق به فصار روحاً صرفاً فإن التبس على الجسمانيين الأرضيين بما يلبسون فإنه روحاني سماوي عند نفسه فلا يمكث في التراب وهذا بعثه الروحاني من قبر تراب جسمانيته وهم الكاملون من أهل الله تعالى.

ومن الأجسام من أبعدته السابقة الأزلية وهي تقدير الحق تعالى عليه بالإخلاد إلى أرض الطبيعة فلا ينتقل إلى عالمه الروحاني وإنما يبقى منقطعاً في عناصره بين النبات النامي والجماد الواقف ولا يخرج من عالم الكثافة إلى حيوانيته وإنسانيته ونظير ذلك أنك تجد عشباً نابتاً في الأرض فترعاه دابة ثم تروثه فيصير تراباً، فانظر كيف يصير النبات تراباً ثم ذلك التراب يصير نباتاً يخضر ثم ترعاه دابة أيضاً ويعود تراباً.

وهكذا مراد على قدر تكرار التردد الكائن في السابقة المقدرة في حضرة الأزل حتى تنس العهود والمواثيق المأخوذة في حضرة الروحانية العليا في منزل القرب الإلٰهي حيث التجلي الرباني المعبر عنه في الكلام المنزل بـ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

ثم لما فرغ من بيان الروح والجسم وكيفية تكوينهما شرع في بيان النفس وذكر كيفية تكوينها في الجسم، فأخبر أن الروح التي تسمى نفساً باعتبار ما

ينتقش فيها من صور الطبيعة كلما مرت في منزل من منازل الجسم إما النباتية أو الجمادية أو الحيوانية أو الإنسانية انتقشت فيها طبيعة ذلك المنزل من خير أو شر فتظهر النفس كاملة ويسمى ذلك الانتقاش نفساً. ومراد الصوفية بموت النفس ذهاب ذلك الانتقاش، بحيث تعود الروح إلى ما كانت فيها قبل نزولها إلى تدبير هذا الجسم الطبيعي لأجل استئناف معرفة على الأولى.

وهذا الانتقاش المذكور المستأنف لها هو نسخة الأكوان المطبوع فيها فلا تزال ترتقي فيه حتى تطابق به حقيقة مشهودها وترافق فيما علمته وانتقش فيها ما الكون عليه في حقيقة أمره. فعند ذلك ترجع الروح إلى وطنها الأصلي الذي خرجت منه ويصير ما انتقش فيها عين ماء فترجع الصورة إلى المتصور بها ويهتدي المتحير إلى معرفة نفسه فتصير النفس هي علمها بنفسها وهو الكمال الإنساني.

ثم أخذ رضي الله عنه يبين ذلك على نفسه بطريق المنازلة فأخبر عنه من حيث الجسمانية أنه أولاً نزل من السماء إلى الأرض ماء مطر ثم أثمر به حب في الأرض وأخبر أن ذلك الحب كان أرزاً.

وسبب ذلك أن الناظم رضي الله عنه من بلدة جيل من بلاد الهند وغالب قوت تلك البلاد الأرز كما هو المعروف الآن. ثم أخبر أن ذلك الحب الذي هو الأرز ساقه قضاء الله تعالى وتقديره حتى صار عند أبوي الناظم رضي الله عنهما.

ثم انحل في مزاج جسمهما مادة بعد أن كان كيموساً وصار دماً ثم صار منياً ولما قرب أوان الظهور اجتمع أبواه بعقد نكاح صحيح وتجامعا فنزل المنيان وتلاقيا في الرحم فأبدعه الله تعالى في التركيب وصوره جسماً معتدل النشوء ثم توجه على ذلك الروح الكلي الإلٰهي المخلوق قبل كل شيء بنفخ الله تعالى فكان النافخ هو الله تعالى والمنفوخ هو الروح والمنفوخ فيه هو الجسم المسوى الذي صوره الله تعالى باليدين الإلٰهيتين اللتين هما عبارة عن حضرتين له تعالى جامعتين للضدين كالمعطي المانع والضار النافع والمعز

المذل ونحو ذلك. فانطبقت في هذا الجسم المسوى الطبائع المتضادة واختلفت عليه الأحوال. ثم لمَّا تم نشؤه في بطن أمه أخرجه صانعه الحكيم إلى عالم الدنيا وكان ذلك في أول يوم من شهر محرم سنة سبع وستين وسبعمائة من هجرة النبي ﷺ ثم أخذ رضي الله عنه يعنوا أحواله من طفولته إلى أن أدرك الكمالات ودخل في عداد الرجال أصحاب المقامات والأحوال فقال:

ومذ كنت طفلاً فالمعالي تطلبي ... وتأنف نفسي كُلَّما هو واضع

ولي همة كانت وما هي لم تزل ... على أن لي فوق الطباق صوامع

وقد كنت جماحاً إلى كل هيئة ... فخضت بحاراً دونهن فجائع

وكل الأماني نلتها وهي إن علت ... بها بعد نيل القصد ما أنا قانع

إلى أن اتتني من قديم عناية ... أياد لها مذ كنت عندي صنائع

وهب نسيم الجود من ذلك الحما ... وصب سحاب التعطف هامع

وأحيا الحيا أرض الفؤاد فأعشبت ... وغنت على عود الوصال سواجع

فهمت من المغنى معاني أحبتي ... فهمت معنى بالصبابة والع

ولاحظت في فعلي قضاء مرادها ... وأبصرت صنعي أنها هي صانع

أتيت إليها راغباً في مرادها ... وما لي في شيء سواها مطامع

وفرغت مشغول الفؤاد عن السوى ... فما أنا في غير المحب مُطالع

فلما أضاءت في الحشاء جذوة الهوى ... وأومض من سفح المحبة لامع

سقاني الهوى كأس الغرام ولم يكن ... على ساحة الوجدان بالكرم مانع

فقاطعت ندماني وأوصلت لوعتي ... هاجرت أوطاني فبانت مواقع

تركت لها الأسباب شغلاً بحبها ... ووجداً بنار قد حوتها الأضالع

وأشغلني شغلي بها عن شواغلي ... وفيها فإني للعذار مخالع

خلعت عذاري في الهوى وزهدت في ... مكاني وإمكاني وإما أنا جامع

وألقيت إنساني فلاقيت منيتي وجافيت نومي بل جفتني المضاجع
وسلمت نفسي للصبابة راضياً بحكم الهوى تحت المذلة خاضع
وفوضت أمري في هواها توكلا ليقطع في حكمي بما هو قاطع
وأنزلني من أوج عزي ذلة فلي بعد رفع الاقتدار تواضع
غنيت فأغناني غناي بحبها وعندي افتقار نحوها وضرائع
طرحت على أرض الهوان رياستي لها نعمٌ طرحاً لقدري رافع
لبست ثياب الوجد فيها خلاعة لباس الهوى في الحب ما أنا خالع
ومذ أودعتني تربة الذل والشقا فروحي وروحي راحل ومودع
ولي في هواها هتكة وتبدد على أنه لي من هواها مصارع

ذكر من أوصافه أنه من حيث كان طفلاً وهو يطلب المراتب العالية وتأنف نفسه من الأمور الدنية والخسيسة، وهذه حالة النفوس الأبية والأرواح المقدسة، فإنها لا تطلب إلا الجناب العالي ولا تقنع بما هو دونه. وأخبر أن له همة عالية في طلب الكمال الإنساني بخرق السمٰوات السبع وأنه كان له جموح وامتناع وميل إلى كل هيئة كونية فخاض بحاراً من المجاهدات الشرعية دون تلك البحار أهوال وفجائع من القواطع والموانع والعوائق.

وأخبر أنه قال جميع أمانيه ومطلبه وهو بعد ذلك غير قانع وإن حصل على مقصده بل هو دائم الطلب دائم الترقي لا تقف به حالة ولا تقطعه عن السير إلى جناب ما لا يدرك ولا يدرك صفات كمال اتصف بها وما زال كذلك إلى أن أدركته العناية القديمة المقدرة له النعم الجسام بالموافاة إلى حضرة ذي الجلال والإكرام. وهب عليه نسيم الجود الإلٰهي وصبت عليه سحابة الرحمة الربانية فأحيا مدد الأمطار الرحمانية أرض قلبه بعد موتها فأنبتت عشب المعارف والحقائق الإلٰهية وغنت على أعواد جسمانيته سواجع أطيار روحانيته وفهم معاني الأحبة وصفاتهم الجلالية والجمالية واستغرق في حضرات القرب

الرباني فهام قلبه المعني بالصبابة الواسع في المحبة.

ثم أخبر أنه أتى محبوبته راغباً في مرادها معرضاً من مراده، وما له مطمع في شيء سواها، وهذا شأن المريد الصادق في إرادته. وفرَّغ فؤاده عن الاشتغال بشيء من الأشياء غير محبوبته بحيث لم يبق له مطالعة في غيرها ومعلوم أنها لا تنال كما قال ابن العربي قدس الله سره العزيز: الصحيح أنه لا وصول إلى الله أبداً، وإنما الجميع سائرون وسيرهم متفاوت وإنما الذي ينال منه معرفة الآثار من حيثية المؤثر كما قال الصديق رضي الله عنه: رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه. فإذا طالع في الآثار طالع في المؤثر، والجميع هكذا غير أن الذي يطالع مختلف الآثار تختلف باختلافه، فيختلف ظهور المؤثر باعتبار ذلك، فليست مطالعة أحد الخواص في الآثار كمطالعة العامي فيها وليست مطالعة النبي في الآثار كمطالعة الولي والملك كذلك، وليس ظهور المؤثر لأحد الخواص كظهوره للعالي، ولا ظهوره للنبي كظهوره للمولى أو للملك، فالمطالع فيه واحد والمؤثر في ذلك واحد، ولكن ظهوره مختلف باعتبار كمال الذي يطالع ونقصانه.

ثم إنَّه الناظم رضي الله عنه ذكر حالته في طريق المحبة الإلٰهية فأخبر أن جذوة الهوى لما أضاءت في قلبه ولمع فيه برق المحبة شرب كأس الغرام ولم يكن له مانع وهو على ساحة كرم هذا الوجود، فلم يعوقه وجدان شيء من ذلك وقاطع ندمانه في أيام الغفلة وواصل الأشواق وهجر أوطانه ومرابعه واشتغل بالمحبة وترك التعلق بالأسباب مطلقاً وخلع عذاره وجانب استتاره وزهد في مكانه وأعرض عن جميع ما جمعه من إمكانه.

ثم إنَّه بعد ذلك ألقى إنسانيته وترك نفسه حتى لقي ربه وهجر منامه وسهر لياليه وأيامه وأسلم نفسه للمذلة والهوان وفوض أمره متوكلاً على الرحيم الرحمٰن واكتفى بالمحبة عن كل ما تهويه الأكوان ولبس ثياب الأشواق والأشجان وتهتك ولم يبالي بمن أعاب عليه أو شان وبالله المستعان.

[الفقر والمحبة]

جعلت افتقاري في الغرام وسيلتي ... ويا ضعف مشغوف له الفقر شافع
وجئت إليها راغباً لا مثوبة ... ولكن لها مُنّى إليها أسارع
سكنت الفلا مستوحشاً من أنيسها ... ومستأنس بالوحش وهي رواتع
أنوح فيشجيني حمام سواجع ... وأبكي فيحكيني غمام هوامع
ولي إن عوى ذيب على فقد إلفه ... زفير له في الخافقين صدائع
وإن غردت قمرية فوق أيكة ... تجاوب قمرياً على الأيك ساجع
فإن لأناتي وتأويه لوعتي ... بتلك الفيافي في الظلام تراجع
وبي من مريض الجفن سقم مبرح ... ولي في عَصِيِّ القلب دمع مطاوع
نحلت من الآلام شغفاً كأنني ... مقدَّر مفروض وما هو واقع
فجسمي وأنفاسي محال وواجب ... ودمعي وخدي أحمر وفواقع
فلو نقط الخطاط حرفاً لهيكلي ... على سطح لوح ما رآه مطالع
أسائل من لقيت والدمع سائل ... من الجزع والسكان والقلب جازع
تحارب جفني والكرى فتفانيا ... وسالم قلبي الحزن فهو مبايع
لقد قيدت بالنجم أهدابُ مقلتي ... كما أطلقت عن قيدهنَّ المدامع
وأسقط قدري في الورى شنعه الهوى ... وعندي أن العز تلك الشنائع
وكم مرَّ بي من كنت أرفع قدره ... كأني له من بعد ذلك واضع
وينكُف أن ألقاهُ بي متطيّراً ... وما هو إن حدثته لي سامع
فما لي في الحي ما عشت صاحب ... ومالي حقاً لو أموت مشايع
وما لي أن حدثتهم من مجاوب ... ولا إن دهاني الخطب فيهم مُدافع
كأن لم أكن في الحي أرفع أهله ... مكاناً وقدري في المكانة مانع
ذللت إلى أن خلت لم أزل ... أذَلَّهُم قدراً فها أنا خاضع
وأحسب أن الأرض تَنكُف أن ترى ... ولي في ثراها مذهب ومشارع

رعى الله إخواناً رعين مودتي ... فَهُنَّ لقلبي حيث كنت توابع

نعم وسَقى وجداً مدى الدهر مؤنسي ... فكم لك يا دهري عليّ صنائع

ويا زفراتي فاصعدي وتنفسي ... فقد هبطت من جفن عيني المدامع

ويا كبدي في الحب ذوبي صبابة ... ويا كمدي دم أنني لك تابع

ويا جسدي هل فيك من رمق فما ... أراك مرايا سوى بالوهم عندٌ مطالع

ويا مهجتي والرسم مني دارس ... ويا طلل الأحشاء فجعُك صارع

ويا جفني المقروح قد فني الدما ... ويا قلبي المجروح هل أنت قانع

ويا ذاتي المعدوم هل لك بعثة ... ويا صبري الموهوم هل أنت راجع

ويا خفقان القلب زدني كآبة ... ويا نار أحشاي حنين الأضالع

ويا نفسي الحرة موتي تلهفاً ... فما لك في دين المحبة شافع

ويا روحي المتعوب صبراً على البلا ... ويا عقلي المسلوب هل أنت والع

ويا ما بقي في الوهم مني وجوده ... هدمتك وقمه متمانع

ويا سقمي زدني أسًى وتبلّداً ... فليس لضري غير سقمي نافع

ويا عاذلي كرر فإني وإن أكن ... إلى العذل لا أصغي فللذكر سامع

ويا قاضياً في الحب يُقضى بعدله ... تحكَّم بجور إنني لك طائع

جعلت وجودي فانياً في بقائها ... ألا فاقض ما تقضي فما أنا جازع

وحققت أني في وجودي قائماً ... بها ووجودي مكرة وخدائع

ثم إنَّه جعل افتقاره في المحبة وسيلة إلى محبوبته إذ لا وسيلة له غير ذلك ولا أضعف ممن افتقاره شافعه. ثم أخبر أنه جاء إلى محبوبته راغباً في جنابها والقرب إليها لا طالباً للمثوبة والجزاء منها، لأنه لا يلزم من طلب المثوبة ثبوت مطلوب له ذلك وهي النفس وقد ترك نفسه وتخلى عن حظوظها فلا نفس له مع محبوبته فكيف يطلب لها من محبوبته جزاء.

ثم أخبر أنه نفر من الإنس واستأنس بالوحش فراراً من العادات ورغبة في

محبوبته لعلمه بأنها على خلاف كل ما يمكن أن يدركه فلا تنال إلا بدوام الاستيحاش من كل شيء محسوس أو معقول.

ثم أخبر أنه يناوح الحمائم ويحاكي بدموعه الغمائم ويزفر على فقد إلفه الأول ووطنه السابق الذي عليه المعول وتحن روحه إلى حضرة الأرواح العلوية كلما سمع فوق الغصون تغريد قمرية ويمرض شغفاً بالجفون المراض وله في المحبة والتولع بالآثار الجمالية مدمع فياض. وقد فني في محبوبه الحقيقي من آلام المجاهدات حتى صار كأنه موهوم مقدر مفروض غير محقق، وذلك لأن الوجود واحد وهو القديم. وأما الموجود الحادث فهو مجرد إضافة لا حقيقة كما سبق بيانه فلا شبهة فيما قال رضي الله عنه فلو أن الخطاط، أي الذي يخط وهو الكاتب نقش في لوحه حرفاً كهيكل هذا المذكور ما رآه من يطالع ذلك اللوح من دقته وخفا رسمه.

وأخبر أنه وصل من الهوان إلى حدّ أنه كان إذا مرّ به صاحبه الذي كان يعظمه من قبل ويجله لا يعبأ به ويتطير منه ويتشاءم وإذا حدثه لا يسمع لحديثه، حتى صار لا صاحب له في حياته وإذا مات فلا مشيع لجنازته لإنكارهم عليه لما جهلوا من حاله وإذا دهاه خطب فلا مدافع عنه فيهم غير الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحَجّ: 38] مع أنه كان من أرفع أهل الحي قدراً وأعظمهم ذكراً فصار من أذلهم حتى ليظن أن الأرض تستنكف من مشيه عليها، من هوانه على الناس ومذلته عليهم ثم بقية الأبيات ظاهرة المعنى. وأخبر أنه في آخرها أنه تحقق بأنه قائم وثابت في وجوده جسماً وروحاً بتلك المحبوبة، بحيث صار وجوده تبعاً لها ملتحقاً بها فانياً مستهلكاً فيها غير مستقل دونها ولا موجود معها وجوداً كوجودها، وأين الباقي من الفاني وأين الحادث من القديم، وتحقق أيضاً أن وجوده معها بحيث يصير مشاركاً لها في الوجود مكر منها به واستدراج له ومخادعة نعوذ

بالله من ذلك كما قال القائل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

[كيفية الخروج عن الوجود الحادث إلى ختام الشهود القديم]

ثم أخذ يبين كيفية خروجه عن وجوده إلى ختام شهوده فقال:

فمن مصر أرضي قد خرجت لمدين ... لعلَّ شعيب القلب فيه صنائع
فلاقيت بنتي[1] عادتي وطبيعتي ... تزودان أغنامي ومائي نابع
سقيت من الماء اليقين غنائمي ... ومن رعي زهر العلم ظلن شوابع
وجاءت على استحياء ذاتي لربّها ... بتوحيدها إحداهما وهي تسارع
فلما تزوجت الحقيقة صنتها ... وأمهرتها في الحماة الشرائع
صعدتُ معالي طور قلبي مناجياً ... لربي حتى أن بدت لي لوامع
وخلفت أهلي وهي نفسي تركتها ... وجئت إلى النور الذي هو ساطع
فناداني التوحيد نعليك دعهما ... فها أنا ذا للروح والجسم خالع
وكلمني التحقيق من شجر الحشا ... بأني بالوادي المقدَّس راتع
فسرت بعقلي من فتاي وحوته ... إلى مجمع البحرين والعقل تابع
هناك نسيت الحوت وهو أنيتي ... فسبح في بحر الحقيقة شارع
على أثري ارتديت حتى لقيت من ... هو الأصل إذ نقش أنا وهو تابع
فلما تعارفنا ولم تبق نكرة ... طلبت اتباعاً كي يفوز متابع
فاغرق في بحر الإله سفينتي ... وخرَّ غلام الشرك إذ هو جازع
وجزنا بلاد الله قرية غربة ... وفيها لقلبي منحنًى وأجارع
أردنا ضيافات أبوا أن يضيفوا ... لتسدل في وجه البدور براقع
هناك جدار الشرع خضري أقامه ... لئلا ترى بالعين تلك الشرائع

(1) وفي نسخة [فالقيت بني].

مراده بمصر أرض هذه المدينة الجسمانية المركبة من أربعة حور وهي العناصر الأربعة، ومدين وهي مدينة صغيرة بالقرب من مصر، وهي هناك قلبه الجسماني الذي هو هذا الشكل الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من داخل الجسم، وشعيب الذي في مدين هذا القلب الجسماني هو القلب الروحاني الساكن فيه، الذي هو كناية عن الروح الحيوانية.

فلما ورد موسى عقله من القوى الروحانية المنبثة في مدين القلب الجسماني وجد بنتي عادته وطبيعته المتولدين من شعيب القلب الروحاني شفيعان أغنام أعضائه وعروقه ومفاصله الظاهرة والباطنة من ما تلك القرى المذكورة، الذي هو نابع في مدين القلب الجسماني، فسقى لها أغنامها التي هي ذات شعب من كثرة ما رعت زهر العلوم النافعة حتى جاءت إحدى البنتين المذكورتين إلى شعيب القلب الجسماني تمشي على استحياء الذات التي كانت غافلة من ربها بسبب توحيدها له، فعند ذلك تزوج موسى بالعقل إحدى البنتين المذكورتين فظهرت تلك الزوجة هي الحقيقة الكلية والجوهرة الروحانية المعروفة عند العارفين والمشار إليها بكل شيء عند أهل اليقين، وكان مهرها رعي الأغنام المذكورة أي سياسة الأعضاء الظاهرة والباطنة بالمواظبة على الأحكام الشرعية والاجتناب عن النواهي والأخلاق الردية.

ثم إنَّه أخبر بعد ذلك أنه صعد على طور قلبه مناجياً بلسان روحانية حضرة ربه حتى لمعت له اللوامع وبدت لديه النار التي هي حقيقة القهر الإلٰهي لكل ممكن بالإيجاد على حسب الأمر الجامع، خلَّف أهله أي ترك نفسه وجاء إليها مسرعاً، فوجد ذلك النار نوراً، وتبدل حزنه سروراً، فناداه التوحيد بلسان التفريد والتجريد: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12]، فخلع جسمه وهو النعل الأيسر في القدم الشمال الواقف في عالم الدنيا، وخلع روحه وهو النعل الأيمن في القدم اليمين الواقف به في عالم الآخرة، ثم كلمه التحقيق بكلام دقيق من شجر الروحانية النابتة في أرض القلب الجسماني في داخل الجسم

الإنساني وقال له: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ [طه: 12] وهو النور المحمدي المتنزه عن كل دنس من التصويرات الظاهرة لما ألقى النعلين وشمر عن القدمين وتباعد من نجاسات الأجسام والأعراض وقاذورات الكيف والأين، فعند ذلك صح له الخروج عن وجوده وموافات شهوده.

ثم إنَّه سار موسى عقله مع غلامه يوشع نقله وجاوز فناء وجوده في مجمع البحرين: بحر القلم الأعلى وبحر اللوح المحفوظ نسي هنالك الحوت الذي كان مع يوشع النقل وهو الآنية التي كانت ثابتة معه بسبب الحكم الشرعي للقيام بأحكامه فذهب ذلك الحوت في بحر اللوح المحفوظ فالتحق به كالتحاق الشعاعات من قطر الشمس بالشمس عند القبض إليها حتى لقي نصباً من سفره إلى الله تعالى وأدركه نقب كثير من طلب ما لا يدرك وطعمه في معرفة ما لا نهاية المسير إليه، فعند ذلك تذكر حوته وطلب من يوشعه حوته، فذكر له النسيان حتى ارتد على أثره راجعاً إلى الاعتراف بالقصور والقناعة بالتسليم والإمكان وقال: ذلك ما كنا نبغي ولكن هذه المجاوزة من عمل الشيطان.

ثم إنَّه لقي في مجمع البحرين من هو أصله بلا شك ولا مين. وأخبر أنه كان نقشاً لذلك الطابع ولا شك أن النقش أثر للخاتم وصفات الرب صورة الخاتم الإلٰهي على طريق الاستعارة البيانية والعبد أثر ظاهر عن تلك الصفات فهو متصف بأعضاء ظاهرة وقوى باطنة مسماة بأسماء هاتيك المسببات.

فلما تعارف مع ذلك الخضر المعلوم طلب منه متابعته ليتعلم اختلافات الأمور، فأغرق في بحر الألوهية سفينة صفاته التي هي أثر ذلك الطابع، وقتل غلام الشرك الخفي الذي كان له خادع. ثم لما ورد معه إلى قرية اللوح المحفوظ واستطعما أهلها أبوا أن يضيفوهما لعدم قدرتهم على ذلك، فكان هذا إظهار العجز المخلوق وبياناً لقدرة الإلٰه المالك فعند ذلك رأى حضرة

المذكور جدار الشرع الذي يريد أن ينقض لقلة الانتقال به مع المواظبة عليه في زمان السلوك الروحاني، فأقامه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي القطعية والظنية ظاهراً وباطناً، وهذا هو الكمال الإنساني، لأن النهاية هي الرجوع إلى البداية، والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق ثم قال رضي الله عنه:

فإن فهمت احشاك ما قلت مجملاً ... وإلا فبالتفصيل ما أنا صادع

رأيت قيامي راجعاً نحو ربه ... فهفرت مني للحبيب مراجع

فعاينت أني كنت في العلم ثابتا ... وللحق عالم الحق في الحكم تابع

وبالعلم فالمعلوم أيضاً محقق ... وليس لهذا الحكم في العقل رادع

فحينئذٍ حققت أني نفحة ... من الطيب طيب الله في الخلق ضائع

وما النَّشر غير المسك فافهم إشارتي ... ويغنيك فالتصريح للسر ذائع

فشاهدت ليلى في مرآة قيسها ... وعاينت بشراً في بثينة ساطع

فلاحظت في فعلي قضاء مرادها ... وأبصرت صنعي أنها هي صانع

تحركني مستورة بأنيتي ... وما سترها إلا لما فيَّ مانع

سلمت نفسي حيث أسلمني القضا ... وما لي مع فعل الحبيب تنازع

فطوراً تراني في المساجد عاكفاً ... وأني طوراً في الكنائس راتع

أراني كالآلات وهو محركي ... أنا قلم والاقتدار أصابع

ولست بجبري ولكني مشاهد ... فعال مريد ما له من يدافع

فآونة يقضي علي بطاعة ... وحيناً بما عنه نهتني الشرائع

لذاك تراني كنت أترك أمره ... وآتي الذي ينهاه والجفن دامع

ولي نكتة غرّا هنا سأقولها ... وَحُقَّ لها أن ترعويها المسامع

هي الفرق ما بين الولي وفاسق ... تنبّه لها فالسر فيه فظايع

فما هو إلا أنه قبل وقعه ... يخبر قلبي بالذي هو واقع

فأجني الذي يقتضيه فيَّ مرادها وعيني له قبل الفعال تُطالع

وكنت أرى منها الإرادة قبل ما أرى الفعل مني والأسير مطاوع

فآتي الذي تهواه مني ومهجتي لذلك في نار حوتها الأضالع

فإن كنت في حكم الشريعة عاصياً فإني في حكم الحقيقة طائع

ثم لما ذكر كيفية خروجه عن وجوده الحادث ووصوله إلى مقام شهوده القديم بطريق الإجمال في التعبير، شرع في بيان ذلك مفصلاً فأخبر أنه وجد قيامه، أي بقوته ووجوده راجعاً نحو ربه، أي إلى أمر ربه كما قال تعالى وإليه يرجع الأمر كله. وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البَقَرَة: 245].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفَجر: 27 ـ 28] ونحو ذلك القهقرى، أي على قفاه إلى أن وصل إلى من بعث عنه فعاين عند رجوعه إلى ربه أنه كان ثابتاً في علمه تعالى، ولا شك أن علم الله تعالى تابع لله تعالى والمعلوم في علمه تعالى عين علمه تعالى والعلم عين الذات من وجه.

وهذا حكم يعترف به كل عاقل ويسلم به كل مؤمن فإن الله تعالى ذات موصوفة بصفة العلم لكل شيء وكل شيء معلوم لها، وكل معلوم بعلمه تعالى ملحق بعلمه، وعلمه ملحق بذاته، والملحق بالملحق بالشيء ملحق بذلك الشيء، فالمعلوم ملحق بالذات بواسطة العلم. فصح للناظم رضي الله عنه أن يقول بأنه نفخة فائحة من طيب ذات الله تعالى في الخلق بالاعتبار المذكور. ولا شك أن نفحة الطيب كناية عن تحكم الشيء الموصوف بالطيب في الهوى الذي ملأ ما بين السماء والأرض، فيظهر صورته فيه بطريق الانطباع ويتكيف الهوى بكيفية، ثم يتموج، وصل إلى حاسة الشم فيشمها فيدرك الحيوان تلك الكيفية التي هي صورة ذلك الشيء الطيب فيقال: شم طيباً وعلى هذا الرائحة المشمومة ولا شك أن الله تعالى متحكم بصفاته على العدم يظهر صورة صفاته

فيه كصورة وجوده وصورة قدرته وصورة إرادته وصورة علمه وصورة حياته وصورة كلامه ونحو ذلك من بيان صفاته الجمالية والجلالية.

ولا شك أن صورة علمه وصورة الشيء لا تشبه الشيء وإنما كونها صورته حكم تحكمي اختراعي أراده الصانع بمحض اختياره كما أن الكليات الذهنية كالإنسان مثلاً، والفرس إذا أراد الصانع أن يظهرها في صورة جزئية اخترع لها صورة أرادها فظهرت فيها ظهور مدلول في دليل ومؤثر من أثر، فلا تجعل تلك الصورة ذلك الجزء محكوماً عليه، ولا تمنع من ظهوره في غيرها، ولا يلزم من كونها صورته وقوع المناسبة بينهما، فإنه لا مناسبة بين الأمور الكلية وجزئياتها، وظهور الجزئي في الكلي ليس بطريق الحلول والاتحاد ولا الانحلال، والكلي لا يفارق الجزء ولا ينفك عنه، ومع ذلك ليس بينه وبينه مسافة ولا لصوق، ولا في جهة من جهات الجزء ولا في جميع جهاته، وليس للكل في نفسه جهة ولا مكان ولا يوصف بالجسمية ولا بالعرضية ولا بالجوهرية وإنما هو أمر معقول في الذهن مفروض فاعتبر به في واجب الوجود القديم المنزه عن مشابهته ومشابهة كل ممكن، وهذا المقدار من الأوصاف ليس مشابهة لله تعالى، لأنه في الله تعالى أتم وأكمل وأنزه وفي غيره أنقص وأدنى وأقل كالمفروض بالنسبة إلى الموجود فإنك إذا فرضت للنبي ﷺ نبياً آخر مثله يشابهه في جميع صفاته وأحواله وأقواله وأفعاله وصور وجوداته وأعماله، فهل ذلك المفروض المعدوم الوجود شابه هذا المتحقق الموجود، وهل شيء منه يشابه نبياً من ذلك، وكيف يقاس الوجود بالعدم أو يتماثل الحدوث بالقدم.

ثم لمّا أخبر أنه بمنزلة نفحة الطيب من الطيب بالنسبة إلى الله تعالى على حسب ما ذكرنا قال: وما النشر غير المسك الخ يعني أن رائحة المسك الفائحة مع الهوى التي هي صورته المنطبعة في الهوى، ولهذا سميت رائحة، لأنها صورته راحت عينه أي فارقته بعد أن كانت عينه ليست غير المسك

باعتبار أن صورة الشيء ليست غير الشيء.

ولا شك أن صورة المسك لما راحت عنه وفارقته وانطبعت في الهوى المتموج لم ترح عنه في الحقيقة ولا فارقته، وإنما صورة المسك على ما في المسك لم تتغير ولم تتبدل، وإنما الصورة التي راحت عنه وفارقته أثر من آثار صورة المسك، أثرته صورة المسك في الهوى مثل تأثير الطابع المنقوش في الشمع، وإنما ظهر أثر نقشه لا عين نقشه انفصلت منه وحلت في الشمع، فافهم ما قلناه على التنزيه التام ترشد إن شاء الله تعالى وتحفظ من التشبيه جهدك في معنى ذكرناه.

ثم أخبر رضي الله عنه: أنه شاهد ليلى في مرآة قيسها وشاهد بشراً في مرآة بثينة. يريد: شاهدت ربي في نفسي التي هي بمنزلة المرآة المجلوة للحق تعالى فهو تعالى ظاهر فيها مثل ظهور المسك في رائحته التي فاحت ووصلت إلى ساحة الشم، فأدركها الإنسان وحجب عنها المذكوم فلم يدركها مع كمال ظهورها ومع ظهور نجم السماء في صفحات الماء وظهور الوجه في المرآة المجلوة، فإن الذي ظهر في ذلك كله إنما هو أثر لا عين، فظهرت رائحة المسك في الهوى، وهي أثر كما ذكرنا، وظهرت صورة النجم في الماء، وهي أثر صورته الحقيقية في الحقيقة، وظهرت صورة الوجه في المرآة إذا نظر إليها الإنسان وقابلها، وتلك الصورة في الحقيقة أثر ذلك الوجه لا عينه. فتأمل ما ذكرناه وأصغ عليه بإذن واعية وقلب حاضر ولا تغفل والله يتولى هداك.

ثم أخبر رضي الله عنه أنه لاحظ مراقباً في جميع أفعاله ما يقضيه الله تعالى عليه بمراده تعالى، فلا يرى إلا مراد الله تعالى ظاهراً عليه لا مراد نفسه، ويبصر صنع الله تعالى لا صنعه، إذ كون جميع أفعاله الظاهرة والباطنة صنعه ومراده لا صنع الله تعالى. ومراده تعالى، إنما هو من حيث اعتماده على نفسه ونظره إليها وغفلته عن ربه تعالى وإعراضه عنه، وأما إذا اشتغل

بربه وخرج عن نفسه فإنه بالضرورة يشهد جميع ما يصدر منه فعل ربه لا فعله. غاية الأمر أن يعتقد أن ذلك فعله لا فعل ربه تعالى أمر تعبدي وحكم شرعي ونسبة أمر الله تعالى بها لا غير.

وأما جزؤه الاختياري وهو القدرة والإرادة الحادثتان له، فلا تأثير لشيء من ذلك فيهما كيديه الخارجتين موجودتان حتى يقال له قادر لا عاجز ومريد لا مجبور كما يقال له يدان ورجلان وعينان وأذنان ولا يقال أثر في تناول ولا مشي ولا رؤية ولا سماع، وكذلك الجزء الاختياري يقال لصاحبه أنه مختار مريد قادر لكن لا تأثير له ولا إيجاد ولا إعدام ولا حركة ولا سكون إلا تخلق الله تعالى له ذلك كما سبق بيان هذا فإذا علمته فقد صدق قول الناظم رحمه الله تعالى عن الحضرة الإلٰهية: تحركني من حالة إلى حالة في الظاهر والباطن وهي مستورة عني غير مكشوفة وذلك الستر الذي يسترها عني هو أنني أي جميع ما أقول عنه أنا وهو نفسه فنفسه ستره وحجابه عن ربه، فإذا زال الستر والحجاب زالت نفسه فلا يبقى غير ربه، فيفقد من يطلب الرؤية ويحاول المعرفة، وإذا انسدل الستر والحجاب ظهرت نفسه وانحجب عن ربه واستتر، فوجد من يطلب الرؤية ويحاول المعرفة فنفسه حجابه.

ولهذا ورد: «من عرف نفسه عرف ربه»[1]. وقال الشاعر: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. ثم أنَّه رضي الله عنه ذكر سلم نفسه لربه فقام في مقام الإسلام وتحقق به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] وليس له منازعة مع أفعال الله تعالى فيه ولا اعتراض له على كل شيء من ذلك، فتراه تارة في المساجد معتكفاً راضياً حيث أوجده الله تعالى في ذلك المكان المرضي له تعالى، وتارة تراه في الكنائس والبيع داخلاً راضياً حيث أوجده الله تعالى في ذلك الموضع المسخوط عليه من قبل الله تعالى، فهو عارف برضاء الله تعالى وسخطه ولكنه مطيع لربه في جميع ما قدره عليه من

(1) أورد الرازي في التفسير الكبير آل عمران 191 ـ 192 [9/ 111].

فعل خير أو فعل شر أو نفع أو ضر، ليس جاهلاً ولا منكراً شيئاً مما يرضي ربه أو يسخطه.

ومن هذا حاله وهذه الصفة صفته لا يصدر منه بتوفيق الله تعالى وعنايته له وحفظه إلا ما هو طاعة، لأنه متوكل على مولاه حق الاتكال، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، فحاشا الله تعالى أن يخلق له كفراً أو معصية في تلك الحالة ما لم يعرض عن الله تعالى وينظر إلى نفسه ويصير قائماً بها متحركاً ساكناً ظاهراً وباطناً ويغفل عمن يتصرف في جميع أموره الاختيارية والاضطرارية، فإنه يخلق الله تعالى له الكفر والمعصية عند ملاحظته نفسه ونظره إليها، فتكون نفسه هي السبب في خلق ذلك الشر له كما أن خروجه من ولاية نفسه عليه واتكاله في جميع أموره على ربه تعالى لسبب لخلق الله تعالى له الإيمان والإحسان والطاعة، فيكون السبب في خلق الله تعالى الشر للعبد نفسه، فيصح نسبته إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79] والخير بيد الله تعالى وحده كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 79]. فإذا رؤي من هو متحقق بمقام الإسلام في معصية أو في حالة مكفرة ظاهراً بحسب القانون الشرعي، فإن كان فاسد التدبير يخلط في كلامه فهو في حكم المعتوه شرعاً فيسقط عنه التكليف كما صرح به علماء الأصول في كتبهم فلا اعتراض عليه، وإن كان صحيح التدبير فينتظم الكلام فإن مقامه المحقق به يحفظه من ذلك ويحمله، فإذا ظهر منه ذلك وهذه حالته فهو إما جاهل بذلك المقام في أسرار الأوهام أو مريد للتستر، وحكم الله تعالى يجري عليه ظاهراً، فيثاب من أقام الأحكام الشرعية ظاهراً، ويبقى أمره في الباطن موكولاً إلى الله تعالى كما وقع للحلاَّج وأمثاله.

ثم أخبر رضي الله عنه: أن في تلك الحالة يرى نفسه كالآلات والله تعالى محركه ظاهراً وباطناً بمنزلة القلم في يد الكاتب، وليس في هذا الكلام نفي للجزء الاختياري لأن ذلك الجزء الاختياري في الإنسان بمنزلة يده ورجله

مثلاً ثابتا موجود لنفي الجبر عنه ولكن لا تأثير له، والله تعالى يخلق الأفعال الاختيارية عنده لا به كالمشي عند الرجل والبطش عند اليد ونحو ذلك كما قدمنا بيانه.

ولهذا قال: ولست بجبري الخ وحاصل النكتة التي أشار بها الناظم رضي الله عنه في الفرق بين الولي والفاسق وإن كانت المعاصي تصدر من كل منهما ولكن يحفظ الولي من شؤونها بتدارك التوبة وتوبة الفاسق على حسب ما يريده الله تعالى كما بينته في كتاب الفتح الرباني: أن الولي مع الشهود لله تعالى من حيث طاعاته وعباداته في نفسه من تجلي اسمه الجميل، وتارة يغلب عليه الحال فيشهد الله تعالى من حيث معاصيه من تجلي اسمه الجليل، فيرى في الحالة الأولى الطاعات والعبادات قبل وقوعها منه وهي متوجهة على الظهور فيه، ويرى في الحالة الثانية المعاصي والذنوب قبل وقوعها متوجهة عليه لتظهر منه، فيصير مستعيذاً منه تعالى به كما قال ﷺ: «اللّهم إني أعوذ بك منك»[1] وهذا حال الولي في صدور الذنوب منه لا إقبال منه عليها ولا اهتمام له بها، وإنما هو محل لظهورها عليه، فهو صابر لجريان أحكام ربه عليه. وأما الفاسق فعلى الخلاف من ذلك، لا يدري ما يريد الله تعالى به، فيقبل على معاصيه تعالى عامداً متعمداً، وينتهك حرماته تعالى، ولا يبالي بذلك، وهو مع نفسه في جميع شؤونها، قد عزل ربه عن التصرف فيه من حيث اعتقاده وعمله وولى نفسه، فهو داخل تحت تصاريف أمرها طائعاً مختاراً معرضاً عن ربه غافلاً عنه، ولا يخطر في باله في عمل من أعماله أن الله تعالى مطلع عليه وهو الذي يحركه ويسكنه، لكنه يعلم أن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه كل مخلوق لله تعالى، وأن الله قادر عليه، غير أنه مشتغل فيه سكران تحت الغفلة والغرور عن استحضار ذلك في نفسه. وأما الولي فقد

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، ما يقول الرجل في آخر وتره، حديث رقم (6943) [2/ 99] ورواه الطبراني في الأوسط، حديث رقم (7106) [7/ 142] ورواه غيرهما.

عزل نفسه من التصرف في أمره كله ظاهراً وباطناً وولي ربه على جميع أموره فهو داخل تحت تصاريف القدرة الإلٰهية والإرادة الربانية متنبه من نوم الغفلة غير مغرور بشيء من العوالم، غير أن الله تعالى إذا قدّر عليه المعصية تراءت له قبل وقوعها منه، فيصبر على قضاء الله تعالى فيه، فظهر منه بالإرادة المخلوقة فيه لها قهراً عليه بحيث لا يقدر على الامتناع عن تلك الأحوال المخلوقة فيه، فهو العاصي شرعاً المطيع حقيقة عند الله تعالى، والله رقيب على كل شيء، فيعلم أنه مبتلى بذلك فيصبر على بلائه فيعافيه الله تعالى من ذلك بالتوبة، فيصير من المحبوبين لله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البَقَرَة: 222]. والفاسق لا يوفق للتوبة في كل حين فيوبقه ذنبه، وهو الفرق بين الولي والفاسق، والله أعلم بحقيقة الأحوال وإليه المرجع والمآب.

[بعض أحوال المجاهدة والسلوك]

وكم ركبت نفسي من الهول مركباً	فيا درها لله كيف تصارع
فكانت إذا ما هالها الأمر وعاينت	إرادة من تهوى أتته تسارع
وكم جردوا للحرب فاستلهت بما	أراد حبيبي فازدرتها الوقائع
وكم داسها نعل على أمّ رأسها	فلمّا تولت أقبلت وهي خاضع
وكم كان صدري للنبال عريضة	وعرضي لسهم الطاعنين مواقع
وكم كنت أيضاً للمراد مجرداً	من الغمد سيفاً للدماء وهو ناقع
وكم هجت ناراً للوغى بين أضلعي	وبيني وبين الغير والأمر شائع
وكم قبلت رجلي فم فضربتها	به عامداً إضرارها ومقاطع
وكل الذي آتيه ناظرا	لمثبتة في اللوح أني تابع
فلما مضى ليلي وولت نجومه	وأشرقت شمسي في الألوهة ساطع
سلبت إرادتي وحولي وقوتي	وكل وجودي والحياء والمجامع

فنيت بها عني فما لي أنية هوية ليلى للأنيات قامع

وكنت كما إن لم أكن وهو آنه كما لم يزل فرداً وللكل جامع

وغيبت عن تلك المشاهد كلها وعني وعن غيبوبتي أنا زامع

فلا أنا إن حدثت يوماً مخاطب وإن أسمعوني القول ما أنا سامع

ولا أنا إن كلمتهم متكلم ولا أنا إن نازعوني منازع

فلما فني مني وجود هويتي وباع البقا بالموت من هو بائع

خبتني فكانت فيّ عين نيابة أجل عوضاً بل عين ما أنا واقع

فكنت أنا هي وهي كانت أنا وما لها من وجود مفرد من ينازع

بقيت بها فيها ولا تاه بيننا وحالي بها ماضٍ كذا ومضارع

ولكن رفعت النفس فارتفع الحجا ونبهت من لومي فما أنا هاجع

وشاهدتني حقاً بعين حقيقتي فلي في حبين الحسن تلك الطبائع

جلوت جمالي فاجتليت مرآتي لبطبع فيها للكمال مطابع

فأوصافها وصفي وذاتي ذاتها وأخلاقها لي في الجمال مطالع

واسمي حقاً اسمها واسم ذاتها لي اسم ولي تلك النعوت توابع

وقد ذكر الناظم رضي الله عنه عن بعض أحواله التي كانت تعتريه في زمان المجاهدة والسلوك في طريق الله تعالى، فأخبر أن نفسه كانت تقتحم به كل هول ومهلك كأن فيه إرادة الحق تعالى وكانت القواطع والموانع تتجرد للحرب معه وهو يستسلم مع ذلك وينقاد لإرادة الحق تعالى فيه طائعاً مختاراً، وكم داس إرادته نعل إهانة ومذلة على أم رأسها فلما تولى عنها أقبلت خاضعة كما كانت من قبل، وكم كان صدره عرضة لنبال المصائب والخطوب وعرضة هدفاً لسهام الطاعنين فيه بما يشينه من العيوب وهو مع ذلك مجرد لسيف الإرادة الصادقة ولم يبال بهذه الحروب.

وأخبر أنه كان جميع ما يفعله من مقامات البلايا والمحن التي قدرها الله

تعالى عليه في طريق المعرفة يصير عليها ناظراً في ذلك إلى من أثبت ذلك مقدراً عليه من الأزل في اللوح المحفوظ وهو معترف بأنه تابع لا متبوع ومحكوم عليه لا حاكم ومتصرف فيه لا متصرف، ثم إنه لما مضى ليل وجوده وولت نجومه وظهرت لوائح الرب من أفق وجوده وأشرقت على أرض روحانيته شمس عيانه وشهوده، انسلبت من إرادته واضمحل حوله وقوته وانمحق وجوده وتكوينه وانسحقت ماهيته وعينه وفني بمحبوبته عن نفسه، وخرج بها من عقله وحسه وذهب ما يعبر عنه بقوله: أنا وهو، الأنية رجعت أنيات، جميع الأشياء عند بصيرته إلى الحقيقة الأزلية، وعاد إلى ما كان فيه من العدم، وربه على ما هو عليه من البقاء والقدم.

ثم إنَّه غاب من هذه المعرفة والمكاشفة وغاب عن غيبته وعن كل نعت له وصفة فصار بحيث إذا حدث أحد لا يخاطب غير نفسه، بل لا خطاب صادر منه لفقد حسه، ومن أسمعه قولاً فليس هو السامع، وإذا تكلم فليس هو المتكلم، وإذا نازعه أحد فلا ينازع. ثم لما تحقق بفناء هويته وباع بقاءه الدنيوي بموتته خمدت ذاته، وهمدت أسماؤه وصفاته، واضمحلت أفعاله ومنفعلاته، وقامت الحقيقة الأزلية نائبة عنه وعوضاً منه، بل هو عينه وذلك لما تخلت عن النقطة عينه، فكان هي وكانت هو في تلك الحالة لما تحقق اضمحلاله، وليس بعد ذهاب الحادث القديم، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ [البُرُوج: 20] وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البَقَـرَة: 245]، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هُود: 123].

ثم أخبر أنه بقي بسبب تلك الحقيقة لا بنفسه، فتلك الحقيقة عين تلك الحقيقة لا شيء زائداً عليها، وذلك بعد ذهابه كله وانقشاع سحاب وابله وطله، وطلوع شمسه وانتساخ ظله، حتى ارتفعت بينه وبين تلك الحقيقة تاء الخطاب، وصار لا يصح عنده أن يقول لها فقلتِ أو قلتُ، لأن القائل عين المخاطب كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

وقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

ثم ذهب عن حاله الموصوف به في تلك الحقيقة الزمان، فلا زمان فلا ماض ولا مضارع.

ثم أخبر أنه لما رفع نفسه وأزالها زال حجاب عقله. فصار من الملهمين الذين لا فكر لهم ولا تدبير، وهي آثار من المقام النبوي الذي صاحبه لا ينطق عن الهوى وتنبه من نومه فليس بنائم. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] والناس مشتق من ناس إذا تحرك، فإذا ماتوا فلا حركة لهم فليسوا بناس، لأنهم يتنبهوا من موت الغفلة في نسبة الحركات إليهم، فلزم من ذلك أنه يشاهد نفسه حقاً بعين حقيقته ولاحت عليه تلك الصفات الجلالية والجمالية.

ثم إنه أخذ يتكلم على لسان تلك الحقيقة الأزلية، فأخبر أنه جلى جماله الباهر وأظهر حسنه الزاهر، ونظر إلى مرآته الكونية المعدومة العين في تحقيق القضية، وطبع فيها مطابع الكمال ومظاهر الجمال والجلال حتى عادت أوصافها أوصافه وذاتها ذاته وأخلاقها أخلاقه واسمها اسمه ونعتها نعته، فعند ذلك وقع الاتحاد بين القديمين القديم من حيث نحن، والقديم من حيث هو، وزال الحادث من بينهم وهو العبد فلا عبد، وهذا معنى الاتحاد عن المحققين، لا أن العبد يصير رباً والرب يصير عبداً، فإنه مذهب الزائغين والله الموفق والمعين.

ثمّ قال رضي الله عنه:

فشمسي في أفق الألوهية مشرق وبدري في شرف الرُّبوبية طالع

ونفسي بالتحقيق يا صاح نفسها وليس لتوحيدي من الشرك رادع

فمن نظرتها عينه فهو ناظري وتبصرها عين إليَّ تُطالع

---

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء من كلام سفيان الثوري، ترجمة سفيان الثوري [7/ 52].

ويمدحها بالشكر من هو حامدي ويثني بحمدي من له الحمد رافع

ويعبدني بالذات عابدها كما لها خضعت أحشاء من لي خاضع

تجيب إذا ناديت باسمي وأنني مجيب إذا ناديتها لك فازع

وقد محيت أوصافنا في ذواتنا كما فنيت منّي نعوت ضرائع

فأفنيتها حتى فنيت ولم تكن ولكنني بالوهم كنت أطالع

كذا الخلق فافهم أنه متوهم وهذا كقشر كي يضل مخادع

وما هي ما كانت سوى مخزن ولي هناك من الحسن البديع بدائع

فلما قبضت الإرث من مخزن الهوى تناقض عن جدرانه فهو واقع

فكنت كمنقاء مغرب وصف وما حوت غير ذاك الوصف منها البقائع

هي الذات طاحت إن عرفت إشارتي نجوت وإلا فالجهالة خادع

وهاك حديث المنحنا غير أنه على الورد من قشر الكمال قمائع

غزال له عينان بالسحر كحلا فواحدة فقما وأخرى فواقع

كثوب له طول ولكنَّ لونه حكى ورق الريحان أخضر يانع

فما الطول إلا الثوب واللون عينه إذ الحكم للمحكوم في الأمر تابع

وما الثوب طولاً ولا اللون ذاته وما ثم إلا الثوب تلك المجامع

زرعت لك المعنى بلفظي فاجن ما منحتك من أثمار ما أنا زارع

مراده بشمسه المشرقة في أفق الألوهية وجوده الروحاني من حيث الحضرة العلية المنزهة عن الكيف والأين، وبدره الطالع في شرف الربوبية وجوده الجسماني في تلك الحيثية المذكورة، ولا شك أن المعلوم في العلم عين العلم والعلم عين الذات، ولهذا قال بعد ذلك ونفسي في التحقيق نفسها. وهذا التوحيد ليس له رادع، أي زاجر، لأنه طبق الحق وإن كنا نقول أن المعلوم ليس عين العلم أيضاً، والعلم ليس عين الذات من وجه آخر كما

قررناه في موضعه، وباقي الأبيات معناها واضح فيما ذكر وقوله: وقد محيت أوصافنا في ذواتنا يعني أن الأوصاف لما كانت ليست عين الذات ولا غيرها انمحت في الذات فصار الذي يشهدها لا يشهد إلا الذات لامتناع الانفكاك فيها عن الذات، كما أن النعوت المضارعات أي المشابهات للأوصاف الأزلية من حيث الاسم فنيت عن العبد في عين العبد فصارت أوصافه عينه والعين واحدة من حيث الحقيقة، ولكن الفرق باعتبار التنزل والتنزه والمميز الإمكان وهو الفاصل بين الحضرتين حضرته من حيث هو وحضرته من حيث نحن.

ثم إنَّ حضرته من حيث نحن ليست غير حضرته من حيث هو، بل هو تلك بلا زيادة ترجع إليها وفي شهوده هذا المقام قال: فأفنيتها أي أفنيت الحضرة الإلٰهية من حيث هي ظاهرة لي، وأرجعت ثبوتها إليه من حيث إنها ثابتة في نفسها، وذلك لأن ثبوتها من حيث نحن محكوم به من جهة معرفته بها، وكل محكوم به حادث، فثبوتها من حيث نحن حادث، فلا بد من إزالة هذا الحادث من عين البصيرة المتوجهة إلى الحق تعالى حتى يصدق ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79]، وإلا كان التوجه إلى السماوات والأرض لا إلى فاطرهما وهذا تنزيه التنزيه.

ولهذا قال: فأفنيتها حتى أفنيت ولم تكن أي لم توجد هذا الوجود المنسوب إلى عين بصيرتي، لأن وجودها قديم وهذا الوجود لها الذي في عين بصيرتي حادث برتبة من الوجود الحادث، ولما كان في ابتداء أمره غافلاً عن ذلك توهمها موجودة كما علم بالوجود الذي علمه، ولهذا قال: ولكنني بالوهم كنت أطالع، أو لما كان لا مناسبة بين الحادث والقديم ولا بوجه من الوجوه، كان أحدهما لا وجود له بالنسبة إلى الآخر، فحيث الحادث ظاهر في بصيرة المؤمن فالقديم غيب عنها، وحيث القديم ظاهر فالحادث غيب عنها، وليس في الحادث شيء من القديم، فإذا زال الحادث من بصيرة نفسه

لا يشهد القديم إلا القديم، وليس في القديم شيء من الحادث، فلا حادث مع القديم من حيث مشابهتها في وجود واحد، فلما أفنى الحضرة المذكورة وفني هو وأفنى كل شيء علم أن ذلك كله كان وهما في عين بصيرته من جملة الأوهام بالنسبة إلى ما كشف له عنه من لوامع الوجود الحق من حيث الرتبة لا الحقيقة، فلم يبق له معول ولا اعتماد من غير تعويل ولا اعتماد إلا على القديم الحق من حيث هو ما عليه. ولهذا قال: كذا الخلق.

ثم أخبر أن تلك الحضرة التي هي مقصودة لما تحقق بها أنها ما كانت إلا مخزناً لبدائع الصفات أي موضع مخزن فيه، أي تجمع الصفات البديعة، فلما حصل على الإرث الذي ورثته الأنبياء عليهم السلام وهو العلم وهو سر السر وهو غيب الغيب وهو المقصود بكل شيء انفسخ له ذلك المخزن واندرست جدرانه، فاستولى على ما فيه، فكانت تلك الحضرة المطلوبة له كعنقا مغرب موجودة الاسم معدومة الرسم، فهي المفقودة من عين بصيرته وإن كانت ثابتة عنده ثبوت مرتبة وإذعان وتسليم بحكم إيمانه، لا ثبوت تحقيق وعيان، هذا هو الرجوع إلى البداية بعد النهاية ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 78] وكل جزء من العالم الكلي الجامع، لأنه نسخته، فإذا خرج العارف عن كل شيء فقد أخرجه الله تعالى من بطون أمهاته فلا يعلم شيئاً، لأنه خروج عن كل شيء حتى عن خروجه ذلك لأن شيء.

ومن جملة الأشياء معرفته بربه لأنها حادثة فقد خرج عنها فلا معرفة له فاتصلت الدائرة بطرفيها وعاد الأزل إلى الأبد وظهر عند ذلك الحي القيوم. وهذا معنى الإشارة بقوله: هي الذات طاحت الخ. ثم قال: هاك أي خذ ما أخبرك به من حقيقة الحقيقة وإن كان المعنى الذي أردته لا يفهم من هذه الكلمات عند كل أحد، فإن ذلك كالولد قبل أن يفتح عليه أقماع تستره من أكمامه، فارفع الكم تشم رائحة الورد وتراه وتستغن عن الأخبار عنه.

ثم أخبر عن حقيقة الحقيقة المذكورة بأنها غزال وذلك من جهة نفورها

عن كل شيء لعدم مناسبتها لشيء من الأشياء وقوله: لها عينان بالسحر كحلاً والعينان حقيقتها، لأن عين الشيء حقيقته، وما سميت الباصرة عيناً إلا لأنها مظهر الحقيقة الحيوانية، وتلك الحقيقتان هما وجود الله تعالى من حيث ذاته وهي العين الفقعاء ووجوده تعالى من حيث نحن وهي العين الأخرى التي هي فواقع لتعددها في المظاهر.

ثم ضرب لذلك مثلاً في الحس فقال: كثوب له طول الخ. يعني مثال هاتين الحضرتين للحق تعالى مثال: ثوب له طول وله لون أخضر فالثوب من حيث هو له حضرة وهي حضرة العين الفقعاء، والثوب من حيث كونه موصوفاً بالطول واللون له حضرة أخرى، وهي حضرة العين الأخرى الفواقع، فالأولى متحدة ذاتية، والثانية متعددة صفاتية، ثم إنه بيّن المثال المذكور بأن طول الثوب ليس غير الثوب. وكذلك لونه ليس غيره، وذلك لأن الطول واللون لما كانا غير قائمين بأنفسهما كانتا تابعتين للثوب والتابع لا استقلال له مع المتبوع. ولهذا قال: إذ الحكم للمحكوم في الأمر تابع. ثم قال: إن الثوب ليس طولاً ولا اللون ذات الثوب، لأن المتبوع ليس إلا الثوب لا زيادة عليه وتعدد الحضرات لا يلزم منه تعدد الذات فافهم، والله يتولى هداك. كما أخرجك من العدم وبراك.

[صور التجليات]

فإني لمّا أن تبدت هويتي	خفيت وإن تغرب فإني طالع
وليست سواي لا ولست بغيرها	ومن بيننا تاه المخاطب ضائع
فإني إياها بغير تأول	كما أنها إياي والحق واسع
فكل عجيب من جمالي شاهد	وكل غريب من كمالي شائع
وكل الورى طرا مظاهر طلعتي	مراءٍ بها من حسن وجهي لوامع
ظهرت بأوصاف البرية كلها	أجل في ذوات الكل نوري ساطع

تخلقت بالتحقيق في كل صورة ففي كل شيء من جمالي لوامع
وما الكون في التمثال إلا كدحية تصور روحي فيه شكل مخادع
فصفني بأوصاف الأنام جميعها فإني لِلَيّاك المحاسن جامع
وعن كل تشبيه فإني منزه وفي كل تنزيه فإني مضارع
وجسمي للأرواح روح مدبر وفي ذرة منه الأنام جوامع
ولو لم يكن في الحسن مني لطيفة لما كانت الأجفان فيَّ تطالع
ولولا لذاتي في الكمال محاسن تلوح لما مالت إليه الطبائع
فهيكل شخصي كل فرد بسيطة لجوهر أنواع المحاسن جامع

من المعلوم عند العارف أن الصور الإنسانية في الظاهر والباطن مثال مضروب لجميع الوجود القديم والحادث، فالصفات الجلالية والجمالية للقديم لفظ على معنى، والتشخصات الحسية والعقلية للحادث كذلك، فإذا ظهر ما للوجود القديم خفي ما للوجود الحادث، وإذا ظهر ما للوجود الحادث خفي ما للوجود القديم، وباطن الإنسان صورة ظاهرة وظاهره صورة باطنه.

فلهذا أخبر أن هويته إن تبدت خفي هو فيها وإن اختفت هي تبدّى هو وأخبر أنه ليس غيرها وليست غيره، وأن تاء الخطاب ارتفعت بينهما، فلا يصح استعمالها في الشيء الواحد. ثم لما صح له مقام الاتحاد من جهة فنائه فيما لم يزل وظهور معناه له كما ذكرنا، أخبر أن كل شيء عجيب في الوجود، فهو مشاهد من جماله الحقيقي يشهده كل من يشهده يعرفه كل من عرفه ويجهله من جهله، وكذلك كل معنى غريب فهو ظاهر من كماله الحقيقي، وينسبه الجاهل إلى غيره، فالعوالم كلها مظاهر طلعته أي موضع ظهور علمه بنفسه، لأنه لما علم بنفسه علم العالم، فهذا أظهر العالم موصوفاً بمثل ما هو موصوف به على التنزيه المطلق، فصارت جميع العوالم كالمرآة

لحسن وجهه، فكل شيء ظهر من العدم صورة ذلك التوجه الخاص الأزلي، المؤقت بزمان ومكان على حسب تخصيصات الإرادة.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 115]، فلهذا أشار الناظم رضي الله عنه بقوله: ظهرت بأوصاف البرية الخ. البيتين. وقوله: ما الكون في التمثال الخ أراد ما ورد عن الخبر أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه لكونه كان من أجمل الصحابة وجهاً، فإن جبريل عليه السلام لما كان يتصور في صورة دحية كان يظهر إنساناً من البشر، لكن قريب الخلقة لجميع المخلوقات، فكان مجيئه ذلك مثالاً للنبي ﷺ أن جميع العوالم كذلك، غير أن الفرق بين جميع المخلوقات وبين تلك الصورة التي كان يأتي فيها جبريل عليه السلام خصوص ما ذكرنا من الالتباس بكثرة الأسباب في ظهور المسبب أبعد عن التحقق بالحقيقة، وعدم السبب أقرب إلى ذلك، وإلا فلا فرق بين الصورة التي كان يأتي فيها جبريل عليه السلام وبين كل شيء مخلوق، فإن الصورة لا تغيِّر من المتصور شيئاً، كما أن كثرة الصور لا تغير منه شيء أيضاً. ونظره إذا صور الإنسان في باطنه أموراً كثيرة من الأشخاص المختلفة لا يلزم من تصويره ذلك تغيره عن حقيقة الإنسانية.

وقد سمعنا قول الله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ [الزّخرُف: 57]. فعلمنا أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام من غير أب إلا ضرب مثل لتعريف جميع الكائنات نقضاً لسبب من الأسباب المجعولة في الأكوان وهو الأب ومجيء جبريل عليه السلام، لأن صورة دحية خالية عن الأرب فقط فافهم سر الكمال المحمدي والقرآن المبين العربي.

ثم لما قرر الناظم رضي الله عنه حقيقة الأكوان جميعها بأنها ظهور الروح الأقدس الرباني الذي هو أول مخلوق تكون الأمر القديم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85] فجميع الكائنات

صورة وهو متصور بها. أخبر بأن جميع أوصاف المخلوقات هي أوصافه، وسائر المحاسن التي في الأكوان هو جامع لها، ولولا أن في الحسن لطيفة من معناه الروحاني لما افتتنت به عيون الأنام، ولولا كماله الذاتي الظاهر في كل حسن لما مالت إليه الطباع المتنافرة وعشقته النفوس الشريفة.

وأخبر بأنه منزه عن كل تشبيه ومشبه في عين كل تنزيه. وذلك لأن التنزيه كون من الأكوان التي هي متصور فيها، وأخبر بأن جسمه روح للأرواح مدبر لها ومراده بالجسم وجوده الروحاني الذي هو الروح الأمري فإن الأرواح جميعها في عالم الملكوت كما أن الأجسام كلها صورة أيضاً في عالم الملك وما في عالم الملكوت وعالم الملك بالنسبة إليه إلا لذرة حقيرة بل أصغر من ذلك لأن كل فرد من ذرات الكائنات هي عين ذلك الروح الأمري المذكور على التمام وإن كان الجميع أقل ذرة بالنسبة إليه كما قدمنا أن كثرة الصور لا تغير من المتصور بها شيئاً. ونظيره أن الشيء الواحد إذا ظهر من بعيد لجماعة من الناس فتوهمه كل إنسان شيئاً غير ما توهمه الإنسان الآخر فقال: واحد هو إنسان وقال آخر: هو فرس وقال آخر: هو حجر، وقال آخر: هو شجرة وهو في حقيقة أمره شيء آخر غير ما توهموه. فانظر كيف تنوعت صورة في أعين الناظرين وتعددت وظهر لكل واحد على حسب ما تعطيه حقيقة ذلك الواحد وهو في حقيقة أمره يخالف تلك الصور كلها جميعها وإن كانت جميع الصور صوره والحكم واقع عليه فافهم ما ذكرناه لك بفهم رائق وتأمل كيف تدخل من أبواب الحقائق.

وإني على تنزيه ربي لقائل ... بأوصافه عني فحقي صادع

أنا الحق والتحقيق جامع خلقه ... أنا الذات والوصف الذي هو تابع

فأحوي بذاتي ما علمت حقيقة ... ونوري فيما قد أضاع فلامع

ويسمع تسبيح الصوامت مسمعي ... وإني لأسرار الصدور أطالع

وأعلم ما قد كان في زمن مضى ... وحالاً وأدري ما أراه مضارع

ولو خطرت في سواد الليل نملة على صخرة صَمًّا فإنني مطالع
أعد الثرى رملاً منها قيل ذرة وأحصي عديد القطر وهو هوامع
واحكم موج البحر وسط خضمه عياراً ومقداراً كما هو واقع
وانظر تحقيقاً بعيني محققاً تصور جنان الخلد وهي قلائع
وأتقن علماً بالإحاطة جُملة لأوراق أشجار هناك أيانع
وكل طباق في الجحيم عرفتها وأعرف أهليها ومن ثم واضع
وأنواع تعذيب هناك علمتها وأهوالها طراً وهن فظائع
وأملاكها حقاً عرفت ولم يكن عليَّ بخاف ما له أنا صانع
وكل عذاب ذقت ثم ولم أبل أأخشى وإني للمقامين جامع
وكل نعيم إنني لمنعّم به وهو لي ملك وما ثم رادع
وكل عليم في البرية إنه لقطرة ما من بحاري دافع
وكل حكيم كان أو هو كائن فمن نوري الوضاح في الخلق لامع
وكل عزيز بالتجبر قاهر ببطش اقتداري للبرية قامع
وكل هدى في العالمين فإنه هداي وما لي في الوجود منازع
أصور مهما شئت من عدم كما أقدر مهما شئت فهو مطاوع
وأفني إذا شئت الأنام بلمحة وأحيي بلفظ من حوته البلاقع
واجمع ذرات الجسوم من الثرى وأنشي كما كانت وإني بادع
وفي البحر لو نادى باسمي حوتها أجبتُ وإني للمناجين سامع
وفي البر لو هبَّ الرياح على الثرى أحيط وأحصي ما حوته البقائع
وخلف معالي قاف لو يستغيث بي مُغاث فإني ثَمَّ للضُّر رافع
واقلب أعيان الجبال ولو قلت لها ذهبا كوني فهن فواقع
وأجري إذا شئت السفاين في الثرى وفي البحر لو أبغي المطي تسارع

وإنَّ الطباق السبع تحت قوائمي ورجلي على الكرسي ثمة رافع
وبيتي سقف العرش حشاي ليس لي مكان ومن فيضي خلقن المواضع
وأجري على لوح المقادير ما أشاء وبالقلم الأعلى فكفي بارع
فسدرة أوج المنتهى لي موطن وغاية غايات الكمال مشارع
وكل معاش الخلق تجريه راحتي لراحتهم جوداً ولست أصانع
وفي كل جزء من تراكيب هيكلي لوسعي فالكرسي والعرش ضائع
ولا فلك إلا وتجريه قدرتي ولا ملك إلا لحكمي طائع
وامح الذي باللوح قد كان ثابتاً واثبت إذا وقعت هناك واقع[1]

ثم لما ذكر الناظم رضي الله عنه ما وصف به الروح الكل مما هو متحقق به، استشعر أن أحداً يضيف ذلك إلى الرب تعالى من القاصرين. فأخبر أنه ثابت على تنزيه ربه عن جميع ما يدركه من الأوصاف كما هو اعتقاد أهل البداية من المؤمنين.

ثم أخبر أنه الحق حيث كان في مقام الروح الأمري المذكور وذلك مهيمن بربه ليس مع نفسه ولا غيرها. ونظير ذلك قول الإنسان عن نفسه أنا فلان، فمن المعلوم أن لفظه إياه ليس هي عين القائل مع أنها لفظة صادقة واقعة في محلها، وكذلك قول هذا الروح الأمري الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى أنا الحق بعد خروجه عن نفسه صحيح، فإنه لفظ يدل على معناه، وكذلك نسبة جميع ما ذكره إليه صحيح لا شبهة فيه عند أهل المعرفة، لأن هذا الروح الأمري هو عين كل شيء، وكل شيء صورته، وكونه يسمع تسبيح كل شيء، لأنه مسبح بلسان كل شيء، وكذلك يطالع أسرار الصدور كلها، وكونه يعلم مثاقيل الثرى والجبال والرمال والبحار وكونه يعلم ما في الآخرة.

---

(1) وفي نسخة ورد هذا البيت على النحو التالي:
وأمحو لما قد كان في اللوح مثبتاً وتثبت إذا وَقعَت ثم وقائع

وكذلك جميع ما ذكره فإنه صادق فيه فإن الأشياء كلها مقصورة من هذا الروح الأمري كذرة حقيرة بالنسبة إلى جبل عظيم ويدخل في الأشياء العرش العظيم واللوح العظيم والكرسي وسدرة المنتهى والسمٰوات السبع والأرضون، فسبحان الرب العظيم المنزه عن مشابهة كل عظيم لا إلٰه إلا هو غيب الغيب وسر السر وحقيقة الحقيقة الذي لا يدرك ولا يترك.

ومن تأمل ما ذكره الناظم قدس الله سرّه علم حقيقة الإنسان الكامل وفهم المراد بآدم وبنيه وتحقق بأنه لا موجود إلا هذا الإنسان الكلي فقط، فيظهر له قول من قال لا يصدر عن الواحد إلا واحد أكمل ظهور، ويفهم المراد بالمثل الأعلى في السمٰوات والأرض والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق، ثم أكمل الناظم رضي الله عنه ما هو فيه فقال:

وإني على هذا عن الكل فارغ ... وليس به لي همة وتنازع

ووصفي حقاً فوق ما قد وصفته ... وحشاي من حصر وما لي قاطع

وإني على مقدار فهمك واصف ... وإلا فلي من بعد ذلك بدائع

وثم أمور ليس يمكن كشفها ... بها قلدتني عقدهن الشرائع

قفوت بها آثار أحمد تابعاً ... فاعجب لمتبوع وما هو تابع

نبي له فوق المكانة رتبة ... ومن عينه للناهلين منابع

عليه سلام الله مني وإنما ... سلامي على نفسي النفيسة واقع

كذا الآل والأصحاب ما ذر شارق ... وما ناح قمري على الباب ساجع

لما ذكر تلك الأوصاف كلها لهذا الروح الأمر الكلي أوهم أن ذلك الروح مشتغل بذلك عن ربه، فأخبر أنه فارغ عن كل ما ذكره وليس له همة لشيء من ذلك مطلقاً، وإنما الله تعالى هو الذي يصور منه كلما أراده تعالى كعلوم أهل الإلهام بل هم هو من غير شبهة على تنوعات الحضرات وأوصاف هذا الروح الأمري فوق ما ذكر من الأوصاف، وحاشا قدسه فإنه روح القدس أن

يحصره وصف من الأوصاف المذكورة وغيرها، وإنما المذكور هنا في الأوصاف على مقدار فهمك يا أيها الناظر المبتدي، الذي لم يدخل في مداخل أهل العناية، وإلا فثم أوصاف لهذا الروح المذكور أعلى وأعز مما ذكر، وثم أمور أخرى متعلقة بالحق تعالى من جانب هذا الروح لا يمكن أن تتصور في الحس يمتنع كشفها لمنع الشريعة المحمدية من ذكرها باعتبار أن ذكرها لا يظهرها لمن لم تكن عنده بحيث يفهمها كل أحد بل ذكرها، يوقع في بصائر السامعين وأفهامهم خلاف ما هو المراد منها فرب معنى يفهمه الإنسان بتفهيم الله تعالى لا يقدر أن يفهم غير ذلك الإنسان بنفسه ولو ترجم له بجميع العبارات اللفظية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]. ولا تظن أن عدم إمكان كشفها لكونها خلاف الحق المفهوم إجماعاً عند كل مؤمن كما يظنه بعض الزائغين ممن يطالع هذه المنظومة بغير أدب شرعي فحاشا أهل الكمال مما توهمه الجهال وأهل الضلال. ثم أنه رضي الله عنه أخبر أنه اقتفى آثار محمد ﷺ في جميع ذكره وجميع ما كتمه وهو تابع في ذلك له ﷺ وهو ﷺ حقيقة ذلك الروح المذكور في حضرة خاصة ودائرة اصطفائية لا إثم منها ولما تحقق الناظم قدس الله سرّه بحقيقة الروح المذكور على وجه خاص بطريق الإرث من المقام المحمدي. قال: فاعجب لمتبوع وما هو تابع ثم أعرب عن الحقيقة المحمدية بقوله: نبي له فوق المكانة رتبة، أي فوق كل رتبة عالية ومنزلة سامية تصلها الصديقون وترتقي إليها المقربون مرتبة لا يمكن أن تداني ومنزلة لا يتصور أن تترك.

ثم أخبر أنه من عينه ﷺ أي من ذاته الشريفة للناهلين أي الشاربين المهيمين بشراب المحبة والتحقيق منابع مختلفة كل منبع مشرب خاص ينبع من حضرة خاصة لكامل خاص. قال تعالى قد علم كل أناس مشربهم. وقال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

ثم إنه لما ذكر السلام على النبي ﷺ وهو منبع من منابعه ﷺ على حسب ما ذكرنا أخبره أنه سلامه منه واقع على نفسه وكذلك سلامه على جميع الآل وجميع الأصحاب على هذا المعنى، ولا تستبعد فإن الله تعالى خلق كل شيء من نور محمد ﷺ كما ورد في الحديث الشريف مصرحاً به، فإذا انكشف النور عن نفسه بانمحاق عقله وانسحاق حسه كان ما ذكرناه، حتى نقل عن بعض العارفين أنه كان إذا أشكل عليه الجواب عن مسألة يقول في حلقته وهو بين جماعته: قفوا حتى نسأل النبي ﷺ، ثم يدخل رأسه في جيب قميصه، ثم يرفعه ويقول: سألته فقال: كذا وكذا فيكون ذلك هو الجواب الحق.

وقد ورد عن العارفين شيء كثير دال على ما ذكرنا وبالجملة فلا يعرف الحق إلا أهل الحق ولا يطلع على الحقيقة المحمدية إلا أهلها. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]. ومن لم يكن من أهل البيت فهو من البهائم يرتعون حول البيت ولا يدخلونه مخافة التنجيس فمنهم الناجي من غير ربح وأكثرهم هالكون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا آخر ما قدره الله تعالى على يدنا من شرح العينية للإمام الجيلي رضي الله عنه، والمقصود من الناظر في هذا الكتاب أن لا يفهم كلامنا فيه وفي جميع ما صنفناه في هذا الشأن إلا على مقتضى ما أسسنا عقائدنا عليه من قواعد أهل السنة والجماعة، وليحذر كل الحذر أن يلقي إليه الشيطان معنى فاسداً عند مطالعة كلامنا، ويوهمه أن ألفاظ كلامنا تشير إليه فيكون زائغاً عن طريق الله تعالى الحق وعن مقصودنا بذلك، فيكون مفترياً على الله وعلينا فإن الله تعالى ما أمرنا بالاستعاذة عن تلاوة كلامه القديم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 42] إلا لعلمه تعالى بأن الشيطان قد يلقي في أفهامنا ما لم يكن صواباً من معاني كلام الله تعالى

عند قراءة القرآن فكيف لا يكفي في الأفهام غير الصواب عند سماع كلام عبد مخلوق لا سيما مثلي ممن هو من عامة المؤمنين.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بكتابي هذا جميع المسلمين والمسلمات في جميع الأزمان وأن يوفقهم لفهمه على طريق الصواب وأن لا يجعله وبالاً علينا وأن ينفع بسعينا هذا في الدنيا من الفتن والمحن، وفي الآخرة من عذاب القبر وسوء الدار، وأن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين، ويغفر لنا ولوالدينا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولمشايخنا وآبائنا وأمهاتنا وذرياتنا وأصحابنا والمسلمين أجمعين.

قال مؤلفه رضي الله عنه: وقد حررنا هذا الكتاب وفرغنا من تصنيفه يوم الجمعة المبارك ختام شهر محرم الحرام 1086 ست وثمانين بعد تمام الألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

تحريراً في يوم الاثنين المبارك خامس من شهر رجب الأصم الأصب الذي هو من شهور سنة 1292 على كاتبه بيده الفانية الذي لا يقدر يسمي نفسه من كثرة ذنوبه الفقير عبد الله جاويش نجل المرحوم السيد حسن جاويش غفر الله له ولوالديه ولمن نظر في هذا الكتاب ولجميع المسلمين، آمين، آمين.

فهرس المحتويات

ŠARḤ AL-MAʿĀRIF AL-ǦAYBIYYAH FĪ ŠARḤ AL-ʿAYNIYYAH

by

Al-Sheikh Abdul-Ghani An-Nabulsi

(D. 1143 H.)

edited by

Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali

